
من ربك ؟
ما دينك ؟
من نبيك ؟
إتحاف العقول
بشرح الثلاثة الأصول
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى
شرح
الشيخ الفقيه العلامة
عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري
المدرس بالجامعة الإسلامية سابقا
طبعة جديدة مزيدة و منقحة


إتحاف العقول
بشرح الثلاثة الأصول

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢١٦٥٤/ ٢٠٠٥م



٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠١٠٦٠١٤٩٧٨/٠٠٢

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال: ٠١٠٥٢٦٤٠٢٠/٠٠٢

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com

WWW. DarAlemamAhmad.Com

إتحاف العقول

بشرح الثلاثة الأصول

تأليف

الشيخ الفقيه العلامة

عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري

حفظه الله تعالى

المدرس بالجامعة الإسلامية سابقا



دار الإمام أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحَمدُ لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين ورب الطيبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد ولد آدم أجمعين صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا كثيرًا علىٰ مر الأيام والليالي والشهور والسنين.

أما بعد:

فإنَّ مِن نعم الله السابغة عليَّ التي لا أحصي لها عدًّا ما منَّ الله به عليَّ ويسره لي من نشر كتابي:

«إتحاف العقول بـ:
شرح الثلاثة الأصول»

في طبعته الأولىٰ، وما لقيته تلك الطبعة من قبول لدىٰ المسلمين لاسيما طلاب العلم منهم، شجعني وحفز همتي علىٰ إصدار هذا الكتاب طبعة جديدة

مزيدة اجتهدت كثيرًا في إصلاح ما ظهر لي في السابقة من أخطاء وهأنذا بفضل الله وتوفيقه أقدمه للقراء في طبعته الثانية وفيها -ولله الحمد والمنة- ميزات انفردت بها عن سابقتها، منها:

أولًا: زيادة الأدلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية متبوعة في مواضع من الكتاب بفوائد نفسية من كلام أهل العلم.

ثانيًا -وهي أهمها-: شرح قول المصنف (وافترض الله علىٰ جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله) إلىٰ آخر ما ذكره في الرسالة.

ثالثًا: ختمت الكتاب بأربعة فهارس وهي:

١- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الآثار.

٣- فهرس الأحاديث النبوية.

٤- فهرس المراجع.

٥- فهرس الموضوعات.

وهذا الذي قمت به من عمل حيال شرح الكتاب النفيس العظيم المبارك «الثلاثة الأصول» لمؤلفه الإمام محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعوة السلفية في منتصف القرن الثاني عشر الهجري والذي ناصره علىٰ هذا التجديد الإمام الأمير محمد بن سعود -رحم الله الإمامين وبارك في عقبهما- هو جهد المقل.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفع بهذا الشرح أهل الإسلام كما نفع بأصله.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري

المدرس بالجامعة الإسلامية سابقًا

وحُرر في ليلة الجمعة ١١ ربيع الأول ١٤٢٨هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحَمدُ لله العَليِّ الأعلىٰ، الذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، والذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ، له مَا فِي السَّمَوَات ومَا فِي الأرض ومَا بَينَهُمَا ومَا تَحت الثَّرَىٰ، وَسع كُلَّ شيء رَحمَة وعلمًا، وقَهَرَ كل شيء عزَّة وحكمًا ..

وأشهد أن لا إِلَهَ إلا الله وَحدَهُ لا شريك له، له الأسمَاء الحُسنَىٰ والصِّفَات العُلا، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ ورسوله، أرسله الله بالهُدَىٰ ودين الحَقِّ؛ ليظهره عَلَىٰ الدِّين كُلِّه، وكَفَىٰ بالله شَهيدًا، صَلَّىٰ الله عَلَيه وعَلَىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا مَزيدًا.

أمَّا بَعدُ:

فَهَذَا شَرحٌ مُختَصَرٌ للكتاب النَّافع المَاتع النفيس، المَوسُوم بـ: «**الثلاثة الأصول**» للإمام مُجَدِّد الدَّعوَة السَّلفيَّة فِي مُنتَصَف القرن الثانِي عَشَر الهِجري، وأعنِي به الشَّيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب التَّميمي النَّجدي -رَحِمَه الله رَحمَة وَاسعَة، وجَزَاهُ الله عن أهل التَّوحيد والسنَّة خير مَا يَجزي به عَالِمًا عن أمَّته-.

وكَانَ هَذَا الشَّرح مُسَجَّلًا عَلَىٰ أشرطة، وقد قَامَ بِجَمعه مَشكُورًا تلميذُنا

وصَاحبُنَا: أبو الحَارث مُحَمَّد بن غالب بن حَسَّان العُمَري اليَمَنِي، ومن ثَمَّ قَامَ بعرضه عَلَيَّ، فَحَذَفتُ منه، وزِدتُ عَلَيه، وأصلَحتُ من العبارات مَا رَأيتُ أنَّ إصلاحه مُهمٌّ جدًّا، ثُمَّ قام الأخ مُحَمَّد من بعد بِمَا يأتِي:

أولًا: تنسيق الكتاب تمهيدًا لطبعه.

ثانيًا: عزو الآيات القُرآنيَّة إلَىٰ مَوَاضعهَا من السور.

ثالثًا: تَخريج الأحاديث وبَيَان الحُكم عَلَيهَا، سَوَاء فِي ذلك أحاديث الكتاب وشواهدنا.

رابعًا: وَضعُ فَهرس تفصيلي للمَوضُوعَات الَّتِي احتَوَاهَا الكتاب.

وسَمَّيته:

« إتحاف العقول بشرح الثلاثة الأصول »

والله أسأل أن يَعُمَّ بنفعه أهل الإسلام، وأن يَجعَلَ عَمَلي فيه خَالصًا لوَجهه الكَريم، وأن يَجزي صَاحبَنَا أبا الحَارث خَيرًا؛ لقاء مَا بَذَلَهُ من جهد فِي إخراج هَذَا الكتاب، وصَلَّىٰ الله وسَلَّم عَلَىٰ نَبيِّنا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آله وصحبه أجمَعين.

وكتبه

عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري

المدرس بالجامعة الإسلامية سابقًا

وحُرر في صباح الثاني عشر من رمضان

عام ستة وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة

وكان بالمدينة النبوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم -رَحِمَكَ الله- أنه يَجب عَلَينا تعَلُّم أربع مَسَائل:

المسألة الأولَىٰ: العلم: وهُوَ مَعرفَةُ الله، ومَعرفَةُ نبيِّه، ومَعرفَةُ دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العَمَل به.

الثالثة: الدَّعوَة إليه.

الرَّابعَة: الصَّبر عَلَىٰ الأذىٰ فيه.

الشــرح

أمَّا بَعدُ:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اعلم -رَحِمَكَ الله- ...**» إلَىٰ آخره. هذه الجُملة اعتَادَ كَثيرٌ من أهل العلم تصدير كُتبهم بِهَا؛ لِمَا تَشتَمل عَلَيه من لفت النظر -أعنِي فِي قوله: اعلم- فَهُوَ أمر وتنبيه، تنبيه السَّامع لِمَا يُلقَىٰ إليه من الكلام لأهَميَّته، كَمَا أنَّ الجُملَةَ تشتمل عَلَىٰ الدُّعَاء بالرَّحمَة للمُخَاطب: «رَحِمَكَ الله»، وهذه المَسَائل تَتَعَلَّق بالعَمَل، أربع مَسَائل، وهي مَسَائل عَمَليَّة فِي الدِّين.

قَوله «**الأولَىٰ: العلم**».

المسألة الأولىٰ: العلم: ضد الجَهل، وهو إدراك حَقيقَة الشَّيء عَلَىٰ مَا هي عليه إدراكًا جَازمًا.

ثُمَّ فَسَّرَ العلم، فَقَالَ: «**وهُوَ مَعرفَةُ الله، ومَعرفَةُ نَبيِّه، ومَعرفَةُ دين الإسلام بالأدلة**».

معرفة الله: هي الإيمَان به؛ والإيمَان بالله يَقتَضي الإيمَان بوُجُوده؛ والإيمَان بربوبيته، والإيمَان بألوهيَّته، والإيمَان بأسمَائه وصفاته.

ومَعرفَة نَبيِّنا مُحَمَّدﷺ: الإيمَان بأنه رَسُولٌ من الله.

ومعرفة دين الإسلام بالأدلة: هذه الجُملَة تنبيهٌ إلَىٰ القَاعدَة الَّتي استَنبَطَهَا العُلَمَاءُ من الكتاب والسنَّة؛ وتلكم القاعدة: «**الأصل فِي العبادات المَنع إلَّا بنص**».

فَالتَّديُّن والتَّقرُّب والتعبد لله لا يَكُون إلَّا بالنَّصِّ الصَّحيح الصَّريح، فَلَيسَ للاجتهاد مَجَال فِي إثبات شيء من التَّعبُّد، وهَذَا الدليل إمَّا كتاب، وإمَّا سنَّة، وإمَّا إجمَاع عن سَلَف الأمَّة عَلَىٰ أنَّ الله أمَرَ بكَذَا.

يُروَىٰ عن أمير المُؤمنين عَلي بن أبِي طالب ﷺ أنه قَالَ: «لَو كَانَ الدِّينُ بِالرَّأيِ؛ لَكَانَ بَاطِنُ الخُفِّ أولَىٰ بِالمَسحِ مِن أَعلاهُ»[1]. وهَذَا مَا اتَّفقَت عَليه كَلمَة الأئمَّة -أئمَّة الإسلام من أصحاب المَذَاهب الأربعة وغيرهم- عَلَىٰ أنَّ الدِّين بالدَّليل.

---

(١) أخرجه أبو داود،كتاب الطَّهَارَة، باب: كيف المَسح، برقم (١٦٢)، تَحقيق: مُحَمَّد مُحيي الدِّين عبد الحَميد، وصَحَّحَه الألبانِي فِي الإرواء (١٠٣).

وكَانَ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ بعد درسه: «كُلُّ كلام فيه مَقبُولٌ ومَردُودٌ، إلَّا كلام صاحب هَذَا القبر»[1]. يَعنِي: النَّبِي ﷺ؛ ولِهَذَا فَإنَّ أهل السنَّة والجَمَاعَة -أهلَ السَّلفيَّة- يَزِنُونَ أقوال النَّاس وأعمَالَهُم بِميزَانين لا ثالث لَهُمَا.

* **وذانكم المِيزَانَان هُمَا:** النص، والإجمَاع.

فالنَّصُّ يَشمَلُ الكتاب والسنَّة؛ فَمَن وَافَقَ نَصًّا أو إجمَاعًا قُبِلَ منه، ومَن خَالَفَ نَصًّا أو إجمَاعًا رُدَّ عليه قوله وفعله.

بالأدلة: الوُقُوفُ عند الدَّليل فِي التَّعبد، هَذَا هُوَ شرط المُتَابَعَة؛ لأنَّ كُلَّ عبادة لابد لَهَا من شرطين حَتَىٰ تنال عند الله القبول.

* **وذانكم الشرطان هُمَا:**

- تَجريد الإخلاص لله وَحدَه.
- وتَجريد المُتَابَعَة لرَسُول الله ﷺ.

هَذه المَسألة الأولَىٰ، وهي ثلاثة أصول سَتَأتِي بعد مَعرفَة الله، ومَعرفَة نبيِّه، ومَعرفَة دين الإسلام.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٣)، ورُوِيَ هَذَا أيضًا عن الإمام أحمَد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَمَا فِي مَسَائله لأبِي داود (ص٢٧٦)، قال: سَمعتُ الإمام أحمَد يقول: «ليس أحَدٌ إلَّا ويُؤخَذُ من رأيه ويُترَك، مَا خلا النَّبِي ﷺ».

المسألة الثانية: العمل به.

الشرح

والمسألة الثانية هي: العَمَل بِهَذَا الدِّين -أي: العَمَل بدين الله-، فَإِنَّ ثَمَرَة العلم العَمَل؛ فالعلم دُونَ عَمَل كَشَجَرَة لا ثَمَرَة لَهَا.

قَالَ عَبدُ الله بن مَسعُود ﷺ: «كُنَّا لاَ نَتَجَاوَز عَشرَ آيَاتٍ مِن فَمِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّىٰ نَتَعَلَّمَ مَعنَاهَا وَالعَمَلَ بِهَا». فَقَالَ: «كُنَّا نَتَعَلَّمُ العِلمَ وَالعَمَلَ». فَإِنَّ العلم مَعَ العَمَل الصَّحيح بشروطه حُجَّة للعبد عند الله ﷻ، إذا اجتَمَعَ عِلمٌ وعَمَلٌ صَحيحٌ بشَرطيه السَّابقين، كَانَ ذلكم العلم حُجَّة للعبد عند ربِّه.

وإذا تَخَلَّفَ عن العلم العَمَلُ: كَانَ العلم حُجَّة عَلَىٰ العبد، وكَانَ الإنسان شَبيهًا بالمَغضُوب عَلَيهم وهُم اليهود، سُمُّوا: «مَغضُوبًا عليهم»؛ لأَنَّهُم لَم يَعمَلُوا بعلمهم.

وإن كَانَ عَمَل بدون علم: كَانَ الجَهل والتَّخَبط في العبادة، فَأصبَحَ الإنسان شَبيهًا بالنَّصَارَىٰ؛ لأَنَّهُم يَعبُدُونَ الله عَلَىٰ جهل وضلال[1].

وفِي الحَديث الصَّحيح: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان، ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ قال: كنت**

(١) قَالَ سُفيَانُ بن عُيَينَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانوا يقولون: مَن فَسَدَ من عُلَمَائنَا؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومَن فَسَدَ من عبَّادَنا؛ ففيه شَبَهٌ من النَّصَارَىٰ». مَجمُوع فَتَاوَىٰ ابن تيمية (١/ ١٩٧).

آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[١].

وقَديمًا قَالُوا:

وَعَـالِمٌ بِعِلمِـهِ لَـم يَعمَلَـن مُعَـذَّبٌ مِـن قَـبلِ عُـبَّادِ الـوَثَنِ

هَذه المَسألة الثانية بعد العلم كَانَ: العَمَل به.

❀❀❀

(١) أخرَجَهُ البخاري، كتاب بدء الخَلق، باب: صفة النَّار وأنَّهَا مَخلُوقَة، رقم الحَديث (٣٢٦٧) مَعَ «الفتح»، ومُسلم كتاب الزهد، باب: عُقُوبَة مَن يَأمُر بالمَعرُوف ولا يفعله، ويَنهَىٰ عن المُنكَر ويفعله، برقم (٧٤٠٨) بشرح النووي.

والمَسألة الثالثة: الدَّعوَة إليه.

الشرح

عَلِمَ فَعَمِلَ فَكَانَ عَلَيه أن يَدعُوَ إِلَىٰ الدِّين الذي مَنَّ الله عليه بِمَعرفته والعَمَل به.

ومن هُنا نقول: مَا آداب الدَّاعية؟

* للدَّاعية إِلَىٰ الله آداب كثيرة، ولَعَلَّنا نَذكُر أهَمَّهَا:

أولًا: الحِرصُ عَلَىٰ هدَايَة النَّاس، وتبليغهم دين الله.

ثانيًا: الرِّفقُ؛ فَإِنَّ الرِّفقَ لَم يَكُن فِي شيء إلَّا زانه، ولَم يُنزَع من شيء إلَّا شانه[1].

ثالثًا: الحِكمَة.

رَابعًا: المَوعظَةُ الحَسَنَة.

خَامسًا: المُجَادَلَة بالَّتِي هي أحسن.

والحِكمَةُ هي: وَضعُ الشَّيء فِي مَوضعه.

والمَوعظة الحَسَنة: الترغيب والترهيب، يستعمل كُلًّا منهما فِي موضعه.

والمُجَادَلة الحَسَنة، أو بالَّتِي هي أحسن: إذا كَانَ المَدعُو يَحتَاج إِلَىٰ مُجَادلة

---

(١) يُشير الشَّيخُ -حَفظَهُ الله- إِلَىٰ مَا أخرَجَهُ الإمام أحمَد فِي المُسنَد (٦/ ٢٠٦) الطبعة المَيمنيَّة، من حديث عَائشَة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«مَا كَانَ الرِّفقُ فِي شَيءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ، وَلاَ عُزِلَ عَن شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ»**. صَحَّحَهُ الألبانِي فِي صحيح الجَامع برقم (٥٦٥٤).

يزيل عنه الشُّبه، ويسلك أقرب طريق لوُصُول الحَقِّ إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالىٰ آمرًا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلىٰ الله ﴿بِٱلْحِكْمَةِ ﴾.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة.

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ أي: من احتاج منهم إلىٰ مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.

كما قال: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾ [العنكبوت:٤٦]. فأمره تعالىٰ بلين الجانب، كما أمر موسىٰ وهارون عليهما السلام، حين بعثهما إلىٰ فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم:٧]. أي: قدم علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلىٰ الله، ولا تذهب نفسك علىٰ من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [البقرة:٢٧٢][(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦١٣).

سادسًا: الفقه، وهو علمه بالمَأمُورَات والمَنهيَّات.

سَابعًا: بَيَانُ الحَقِّ للنَّاس، وحَثُّهُم عَلَيه بالأدلة، وبَيَان الباطل أيضًا، وتَحذير النَّاس منه بالأدلة.

ثامنًا: لا يذهب نفسه حَسَرَات عَلَىٰ مَن لَم يَقبَل هُدَىٰ الله، فَذَلكم مِمَّا نَهَىٰ الله نبيَّه ﷺ عنه[(١)]؛ لأنه قَضَت حكمة الله وسنَّة الله: أنه يُحيي مَن حَيَّ عن بيِّنة، ويهلك مَن هَلَكَ عن بيِّنة.

تاسعًا: التَّصَدِّي لشُبه المُبطلين وأهل الأهواء، ورَدُّهَا بالقُوَّة، وتَحذير النَّاس منها، فَالنَّبي ﷺ فعَلَ ذلك.

ولنأخذ مثالًا واحدًا: فإنه حين خَرَجَ إلَىٰ حُنين بعد الفتح؛ مَرَّ النَّاس عَلَىٰ شَجَرَة يُقَال لَهَا: «ذات أنواط»، كما في الحديث: عن أبي واقد الليثي: «أن رسول الله ﷺ لما خرج إلىٰ حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: **سبحان الله هذا كما قال قوم موسىٰ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**»[(٢)].

---

(١) قَالَ الله ﷻ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨].

(٢) رواه الترمذي كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ: باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، وأخرجه الإمام أحمد في المسند بلفظ أطول من هذا (٥/ ٢١٨)، وصححه الألباني كما في المشكاة برقم (٥٤٠٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذه الجملة من الفوائد، أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها، هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركًا، ويقع في هذا الأمة.

فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا، وطلبوه من النبي ﷺ حتىٰ بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: اجعل لنا إلهًا، فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟ وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلىٰ كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمىٰ شركه ما سماه، كمن يسمي دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه، وقس علىٰ ذلك.

وفيها أن من عُبد فهو إله؛ لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ، لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة، والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذًا له مع الله تعالىٰ[1].

هَكَذَا سيرة السَّلَف الصَّالِح من الصَّحَابَة والتابعين، فَإِنَّهُ حينما تروج بدعة وتنتشر يُوَاجهُونَهَا بشدَّة.

من ذلكم: أنه لَمَّا أظهر مَعبد بن خالد الجُهَنِي مَقَالَةَ القَدَر بالبصرة؛ استنكرها الناس، وجَاءَ بَعضُ التابعين إِلَىٰ ابن عُمَرَ رضي الله عنه، وكَانَ ممن بَقي من أصحاب رَسُول الله ﷺ، وأخبروه الخَبَرَ، فَقَالوا: «يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، ظَهَرَ عِندَنَا

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٠).

أُنَاسٌ يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ، وَالأَمرُ أُنُف. قَالَ لَهُم: أَخبِرُوهُم أَنِّي بَرِيءٌ مِنهُم، وَأَنَّهُم بُرَاء مِنِّي، وَاللهِ لَو كَانَ لأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا تُقُبِّلَ مِنهُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ»[1]. زجر شديد جدًّا.

❀❀❀

(١) أخرَجَهُ مُسلم، كتاب الإيمَان، باب: بَيَان الإيمَان والإسلام والإحسان، برقم (١).

والمسألة الرَّابعَةُ: الصَّبر عَلَىٰ الأذىٰ فيه.

الشـــرح

يَعنِي: فِي دين الله، فَإِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَان وزَمَان يلحق الدُّعَاة إِلَىٰ الله عَلَىٰ بصيرة أذىٰ، لكنه يَختَلف باختلاف الزَّمَان والمَكَان، فَإِذَا كانت السنَّة قَويَّة والعَقيدَة السَّلَفيَّة قَويَّة قَلَّ الأذىٰ، فَإِذَا ضعفت فِي النفوس العَقيدَة، وضَعف التَّمَسُّك بالسنَّة؛ استغرب الدَّاعيَة إِلَىٰ السنَّة وإِلَىٰ تصحيح المُعتَقَد؛ فَيَكثر الأذىٰ.

والذي يُريد أن يُقيمَ حُجَّة الله عَلَىٰ العباد يَجب أن يَصبرَ؛ تَأسيًا بِرَسُول الله ﷺ وبالمُصلحين من أئمَّة الهُدَىٰ من الصَّحَابَة والتابعين ومَن بعدهم؛ ولِهَذَا تَجد أكثر النَّاس بَلاءً الأنبياء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل[1] من أتباعهم من الدُّعَاة إِلَىٰ الله عَلَىٰ بصيرة.

والإنسان حينما يتجند دَاعيةً إِلَىٰ الله، إِلَىٰ الهُدَىٰ ودين الحَقِّ قد يستشعر غُربَة، وتَنتَابَه الوَحشَة لقلة السَّالكين مَعَهُ، وكثرة المُخَالفين له، ولكن هَذَا لا يَضُرُّه، فإنه لا يَجُوز الاغترار بالكثرة، ولا الزهد فِي القلَّة.

هَذه إحدىٰ المَسَائل الَّتِي استَنبَطَهَا الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «**كتاب التوحيد**» فِي مسائلة عَلَىٰ باب: مَن حَقَّقَ التَّوحيد دَخَلَ الجَنَّة بغير حساب[2].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد عن النبي ﷺ، باب: ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، برقم (٢٥٧٨)، تحقيق: أحمد شاكر وغيره، وانظر: الصحيحة (١٤٣).

(٢) **قَالَ الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ذَاكرًا مَسَائل الباب:**

«**الخَامسَة عَشرَة**: ثَمرَة هَذَا العلم، وهُوَ عَدَم الاغترار بالكثرة، وعَدَم الزُّهد فِي القلة».

انظر: فتح المَجيد (ص٨٣).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالدَّليلُ قوله تعَالَىٰ: بسم الله الرَّحمَن الرحيم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

الشرح

نأتِي إلَىٰ السُّورَة الكَريمَة، وهي قوله تعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. هَذَا الأسلوب يُسَمَّىٰ فِي اللغة العَرَبيَّة: «أسلوب قَسَم». ومثله: ﴿وَٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾.

والقَسَم من الله جَلَّ بِمَخلوقَاته كَثير فِي القُرآن، ولله أن يُقسِمَ بِمَا شَاءَ من مَخلوقاته؛ تشريفًا للمُقسَم به، أو تنبيهًا عَلَىٰ عِظَم شأنه، أمَّا المَخلوق فلا يَحل له القَسَم بغير الله جَلَّ؛ لقوله ﷺ: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كَفَرَ أَو أَشرَكَ»[1].

وحُرُوفُ القَسَم ثلاثة وهي: الواو، والتاء، والباء، و«الباء» يَجب اقترَانُهَا بالفعل مُتَقَدِّمًا عَلَيهَا أو مُتَأَخِّرًا عَنهَا؛ أقسم بالله، أو بالله أقسم، أحلف بالله، أو بالله أحلف، وأمَّا «الواو والتاء» فَإِنَّهُ لا يُشتَرَط لَهَا ذلك.

«تالله» هَذَا وَرَدَ فِي القرآن كثير.

والمُقسَم به فِي هَذه السُّورَة الكَريمَة هُوَ: العصر.

*** ومَا العصر الذي أقسَمَ الله به هنا؟ هل هُوَ الوَقت المَعرُوف من نِهَايَة**

(١) أخرَجَهُ الترمذي فِي جَامعه، كتاب النُّذُور والأيمَان، باب: مَا جَاءَ فِي كَرَاهية الحَلف بغير الله، برقم (١٥٣٥) تَحقيق: أحمَد شاكر وغيره، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

وقت الظهر حتَّىٰ المَغرب، أو هُوَ الدهر كله؟

يَجُوز هَذَا وهَذَا، وبكُلٍّ من القولين قَالَ طائفة من أهل العلم.

* **فَلنَنظر مَا سرُّ القَسَم -والعلم عند الله-؟**

فإن كَانَ «العصر» هَاهُنَا هو الوقت المَعرُوف؛ فَإنَّ فيه صلاة العصر، وهي أحد البردين، وهي الصَّلاة الوُسطَىٰ، والحَلِفُ بعد صلاة العصر خطير لحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم** -وذكر منهم- **ورجل حلف علىٰ يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم**»[1]. وهذا عظيم، فَهُوَ من أشرف الأوقات، وصلاة العصر قد جَاءَ الحَثُّ عَلَيهَا ببيان فضلها، والتَّحذير من تركها أو تفويتها.

فمن الأول: عن جَرير بن عبد الله البجلي ﷺ قَالَ: «كنَّا عِندَ رَسُولِ الله ﷺ فَنظَرَ إلَىٰ القَمَرِ لَيلَيةَ بَدرٍ فَقَالَ: «**إنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكُم كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ؛ فَإنِ استَطَعتُم ألَّا تُغلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ، وَصَلاةٍ قَبلَ غُرُوبِهَا فَافعَلُوا**»[2].

الشَّاهد منه: «صَلاةٍ قَبلَ غرُوبِهَا»: أي: غُرُوب الشَّمس، وهي صَلاة العَصر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المساقاة، باب: من رأىٰ أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائة برقم (٢٣٦٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف، برقم (٢٩٣).

(٢) أخرَجَهُ البخاري فِي كتاب مَوَاقيت الصَّلاة، باب: فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٤)، ومُسلم فِي كتاب المَسَاجد، باب فضل صَلاتَي الصبح والعصر والمُحَافظة عَلَيهِمَا، برقم (١٤٣٢).

* **وهَذَا الحَديث يَدُل عَلَىٰ أمرين:**

الأول: إثبات رُؤيَة المُؤمنين ربَّهم يَوم القيَامَة.

الثانِي: فَضل صلاة الصُّبح والعصر.

ومن ذلكم: مَا جَاءَ فِي الحَديث الصَّحيح أنه لَمَّا شَغَلَ المُشركُونَ النَّبيَّ ﷺ عن صلاة العَصر يوم الخَندَق قَالَ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسطَىٰ؛ صَلَاةِ العَصرِ**»(١).

ومن الثانِي -وهُوَ التحذير من تركها أو تفويتها- قوله ﷺ: «**مَن تَرَكَ صَلَاةَ العَصرِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُهُ**»(٢).

وحَذَّرَ ﷺ من التَّهاون فيها حتَّىٰ يَفُوتَ وَقتُهَا: «**مَن فَاتَتهُ صَلَاةُ العَصرِ فَكَأَنَّمَا وَتِرَ أَهلَهُ وَمَالَهُ**»(٣).

وإن كَانَ المُقسَم به الدَّهر؛ فَإِنَّ فيه من عَجَائب صُنع الله وعظيم تقديره مَا يُبهر العُقُول، فإنه في العصر الذي هو الزَّمَن كله أو الدَّهر كله؛ يُحيي الله ويُميت، ويَخفض ويرفع، ويُعز ويُذل، ويُعطي ويَمنع، وفيه تَتَابع النُّبوَّات عَلَىٰ البَشَر، وذلك خَيرٌ عَظيمٌ.

---

(١) أخرَجَهُ مسلم كتاب المَسَاجد، باب: الدليل لِمَن قَالَ الصَّلاة الوُسطَىٰ هي صلاة العصر، برقم (١٤٢٥)، من حديث عَليٍّ رضي الله عنه.

(٢) أخرَجَهُ البخاري كتاب مَوَاقيت الصَّلاة، باب: إثم مَن فاتته العَصر، برقم (٥٢٨) من حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) أخرَجَهُ أحمَد (٢/ ١٤٥) من حديث ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، وصَحَّحَه العَلامَة الألبانِي فِي «صحيح الجَامع» (٥٤٩١).

والقَسَمُ لابد له من جَوَاب؛ إمَّا ظاهر، وإما مُقَدَّر، **فَمَا جَوَابُ القَسَم هُنَا؟**

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ حَكَمَ الله ﷻ بِخسر جَميع الإنسان، إلَّا مَن استثنِي بَعدُ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ والإنسان يراد به الجِنس: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾. أي: عُمُوم الانسان، ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾. وهُوَ ضد الرِّبح، هَذَا العُمُوم استثنَىٰ الله ﷻ منه مَن اتَّصَفَ بأربع صفات.

*** وهَذه الصِّفَاتُ هي:**

الأولَىٰ: الإيمَان.

الثانية: العَمَل الصَّالِح.

الثالثة: التَّوَاصي بالحَقِّ.

الرَّابعَة: التَّوَاصي بالصَّبر.

هؤلاء المَوصُوفُونَ بالصِّفَات الأربع هُمُ النَّاجُونَ من الخُسرَان.

والمُرَاد: تطبيق وجه الدلالة من السُّورَة عَلَىٰ المَسَائل الأربع، فَالشَّيخ ذَكَرَ أربع مَسَائل، واستَدَلَّ عَلَيهَا بِهَذه السُّورَة فَمَا وجه الاستشهاد؟ عندنا: العلم، والعَمَل به، والدَّعوَة إليه، والصَّبر عَلَىٰ الأذىٰ فيه.

*** فَشَاهدُ العلم الذي هُوَ مَعرفَة الله، ومَعرفَة نبيِّه، ومَعرفَة الإسلام بالأدلة؟**

الإيمَان؛ ووَجُه ذلك: أنَّ الإيمَان فِي اللغة: التَّصديق.

وفِي الاصطلاح: هو قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعَمَل بالجَوَارح، ويَزِيدُ بالطَّاعَة، ويَنقُصُ بالمَعصية، وهَذَا هُوَ تَمَام العلم بالله، وبنَبِيِّه، وبدينه.

* المَسألة الثانية: «العَمَل»، ودليلها: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وضابط العَمَل الصَّالِح هُوَ: مَا تَوَفَّرَ فيه الإخلاص لله، والمُتَابَعَة لرَسُول الله ﷺ فَبَانَ بِهَذَا أنه ليس كل عَمل صَالِحًا.

* والمَسألة الثالثة شَاهدُهَا؟

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُوصي بَعضُهُم بَعضًا بالحَقِّ، والحق يُعرَفُ من الكتاب، والسنَّة، وإجمَاع السَّلَف الصَّالِح من الصَّحَابة، وأئمَّة التابعين، ومَن بعدهم.

فَلَيسَ الحَق فِي أفكار البَشَر، ومَنَاهج البَشَر؛ لأنَّ كُلَّ فرقة من الثلاث والسبعين تَدَّعي أنَّ عَمَلَهَا حَقٌّ، والَّتِي قَامَ الدليل عَلَىٰ أحقيَّة عَمَلهَا فرقة واحدة فقط، أمَّا اثنتان وسبعون فرقة فَعَمَلُهَا باطل، وإن كَانَ يُوجَد عندها شيء من الحَق، فَمَا من فرقة من الثنتين وسبعين فرقة إلَّا وعَمَلهَا فيه شيء، لكن الفرقة النَّاجيَة والطائفة المَنصُورَة عَمَلهَا كلُّه حَقٌّ، أمَّا بَقيَّة الفرق فَإنَّهَا ضَالَّة مُضلة.

كَمَا أخبر النَّبِي ﷺ فِي حديث افتراق الأمم قَالَ: «**وَسَتَفترِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاَثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**. قَالُوا: مَن هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **الجَمَاعَةُ**»[(١)].

---

(١) وَرَدَ هَذَا الحَديث عن جَمع من الصَّحَابَة منهم: مُعَاويَة بن أَبِي سُفيَان، وأبو هُرَيرَةَ، وأنس ابن مالك وغيرهم، والحَديث أخرجه أحمَد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود كتاب السنَّة، باب: شرح السنَّة، برقم (٤٥٩٧)، والترمذي كتاب الإيمَان، باب: مَا جَاءَ فِي افتراق الأمَّة، برقم (٢٦٤٠)، وابن مَاجَه كتاب الفتَن، باب: افتراق الأمم برقم (٣٩٩٢).
قَالَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: الحَديثُ صَحيحٌ مَشهُورٌ. مَجمُوع الفَتَاوىٰ (٣/ ٣٤٥).

=

هذه الرِّوَايَة الصَّحيحَة، هذه الجَمَاعَة ناجية ومَنصُورَة، وأمَّا اثنتان وسبعون فرقة فهي خَاسرَة.

هَذه المَسألة الثالثة التَّوَاصي بالحَقِّ، والحَقُّ -كَمَا قلنا- مَا قَامَ الدَّليل عَلَيه من كتاب، أو سُنَّة، أو إجمَاع من سَلَف الأمَّة.

*** المَسألة الرَّابعَة: شَاهدهَا أظنه وَاضحًا.**

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ هَذه لَفتَةٌ إلَىٰ أنَّ أهل السنَّة وأهل السَّلَف لا يَستَعجلُونَ، ولا يأخذهم الطَّيش ولا الشَّطَط، يُوصي بعضهم بَعضًا بالصَّبر، يَنَالُهُم مَا يَنَالُهُم من الأذىٰ، ومَعَ هَذَا يَصبرُونَ ويُصَابرُونَ ويَتَوَاصون بالصَّبر.

والصَّبر لغة: الحَبس والمَنع.

واصطلاحًا: هُوَ حَبس اللسان عن التَّشَكِّي والتَّسَخُّط، والنفس عن الجَزَع، والجَوَارح عن لطم الخُدُود وشَقِّ الجُيُوب، ونَحو ذلك من القَبَائح المُنَافية للصَّبر.

*** وهُوَ عند أهل الشَّرع ثلاثة أقسام:**

- **الأول:** صَبرٌ عَلَىٰ طَاعَة الله حتَّىٰ يُؤَدِّيها كَاملَة، أو قَريبَة من الكَمَال؛ لقول الله تعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. يَجب أن يُؤَدِّي الطَّاعَة كاملة، وإذا عَجَزَ سَدَّدَ وقَارَب.

- **الثانِي:** صَبرٌ عَن مَعصية الله حتَّىٰ يَتَجَنبَهَا.

- **الثالث:** الصَّبر عَلَىٰ أقدار الله.

=

وصَحَّحَه الألبانِي فِي السِّلسلة الصَّحيحَة (٢٠٤)، وأورد كَلامًا نَفيسًا فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَن يُضَعِّفُونه، فليراجع.

والصَّبر من الإيمَان بِمَنزلَة الرَّأس من الجَسَد، وقد ذَكَرَهُ الله ﷻ أكثر من ثَمَانين مَرَّة فِي القرآن، وإذا نظرت فِي حَال الأنبياء والمُصلحين؛ وَجَدتَ أَنَّهُم أصبر النَّاس عَلَىٰ تبليغ الدِّين، وتعليمه العباد عَلَىٰ الوجه الصَّحيح.

*** وهذه المَسَائل الأربع هي مَرَاتب جهاد النفس، فالإنسان يُجَاهد نفسه:**

- **أولًا**: عَلَى مَعرفَة الهُدَىٰ ودين الحَقِّ، وأنه سَبَب السَّعَادَة فِي الدُّنيَا والآخرة، وبقدر مَا يفوت النفس من معرفة الهُدَىٰ ودين الحَقِّ بقدر ما يَفُوتُهَا من السَّعَادة فِي الدنيا والآخرة.

- **ثانيًا**: العَمَل بِمَا عَلِمَهُ الله من الهُدَىٰ ودين الحَقِّ؛ حتَّىٰ لا يَكُون العلم حُجَّةً عليه.

- **ثالثًا**: دَعوَةُ النَّاس إِلَىٰ مَا مَنَّ الله به عليه من الهُدَىٰ ودين الحَقِّ؛ لأنَّ من دَعَا إِلَىٰ هُدَىٰ كَانَ له مثل أجور تابعيه، ولا ينقص من أجورهم شيء كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[1].

- **ورَابعًا**: صبره عَلَىٰ مَا يصيبه فِي هَذَا السَّبيل؛ تأسيًا برَسُول الله ﷺ، ومَن مَضَىٰ قبله من النبيين والمُرسلين، ومَن جَاءَ بعد نَبيِّنا ﷺ من الصَّحَابة وأئمَّة الهُدَىٰ إِلَىٰ اليوم.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هدىٰ أو ضلالة، برقم (٩٤٥).

وليس المُسلم قَاصرًا هَمه عَلَىٰ هداية النَّاس عَلَىٰ يديه، بل يَهتَم بتبليغ حُجَّة الله، وأنَّ الله مُظهرٌ دينه؛ إمَّا عَلَىٰ يَدَيه، أو عَلَىٰ يدي من يأتِي بعده، أمَّا أن يقصر هَمه عَلَىٰ هداية الناس عَلَىٰ يديه دون أن يُفَكِّرَ فِي العَوَاقب؛ فَهَذَا خطأ وقصور.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الشَّافعيُّ -رَحِمَه الله تعَالَىٰ-: «لَو مَا أنزل الله حُجَّةً عَلَىٰ خَلقه إلَّا هَذه السُّورَة لكفتهم».

الشـرح

هَذَا القَولُ بَعضُ مَشَايِخنَا يَرَىٰ فِي نسبته إلَىٰ الشَّافعي نظر[١]، ولَم أقف عليه فِي كتاب من كُتب الشَّافعي، مَعَ أنَّ البحث قليل، وحُجَّة الله قَامَت عَلَىٰ الخَلق بغير هَذه السُّورَة، وعَلَىٰ فرض صحَّة هَذَا القول عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإن هذه السورة عَلَىٰ قصر لفظها؛ فقد اشتملت عَلَىٰ المَعانِي الواسعة.

وما أحسن ما قاله الإمام العلامة الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «مراده رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه السورة كافية للخلق في الحث علىٰ التمسك بدين الله بالإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ ذلك، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة»[٢].

قلت: وما تضمنته السورة من المعاني: ما تضمنته من حسن العاقبة لأهل الإيمَان، والتحذير من سوء العاقبة لغيرهم، كَمَا أن فيها التنويه بالدُّعَاة إلَىٰ الله

---

(١) ذكَرَ الحَافظ ابن كثير هَذَا الأثر عن الشَّافعي بلفظ: «لَو تَدَبَّرَ النَّاس هذه السُّورَة لوسعتهم» (٤/ ٧٠٨)، ومِمَّا يَدُل عَلَىٰ فضل هَذه السُّورَة مَا رَوَاهُ الطبراني فِي الأوسط (٥/ ٢١٥)، برقم (٥١٢٤): عن أَبِي مدينة الدَّارمي قَالَ: «كَانَ الرَّجُلانِ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إذَا التَقَيَا لَم يَفتَرقَا حَتَّىٰ يَقرَأ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾. ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الآخَرِ». وصَحَّحَهُ العلامة الألبانِي فِي الصَّحيحَة برقم (٢٦٤٨).

(٢) شرح ثلاثة الأصول للشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٢٧).

عَلَىٰ بصيرة، وأَنَّهُم مُتَمَيزون عن غيرهم، وذلكم أَنَّهُم يَتَوَاصون بالحَقِّ، ويَتَوَاصون بالصَّبر، وليس عندهم شطط كالفرق الضالة.

سِمَاتُهم: الرفق فِي موضعه، والقوة فِي موضعها، فَهُم يَتَمَيزُون بالدعوة إِلَىٰ الله بالحِكمَة والمَوعظة الحَسَنة، والمُجَادلة بالَّتِي هي أحسن، وهذا واضح فِي سيرة الصَّحَابة والتابعين، ومَن بعدهم من أئمَّة الهُدىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ البخاري -رَحِمَه الله تعَالَىٰ-: باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فَبَدَأ بالعلم قبل القَول والعَمَل.

الشرح

بابٌ: التقدير: هَذَا بابٌ.

العلم قبل القول والعمل: قبل أن يدعو يَجب عليه أن يَتَعَلَّم دين الله الذي يدعو إليه.

*** وهنا نقول: إنَّ الدعاة أو المُنتَسبين إلَىٰ الدَّعوَة ثلاثة أصناف:**

- **الصِّنف الأول:** هم أهل البصيرة؛ أي: الفقه فِي دين الله، والدعوة إليه بالحِكمَة والمَوعظة الحَسَنة، وبالحُجَج والبراهين، وهؤلاء هم أسعد الناس، وهم الذين أثنَىٰ الله عليهم فِي قوله لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

- **الثانِي:** دُعَاة الجَهل، وهم الذين يَتَصَدَّرُون مَيادين الدَّعوَة ولا فقه عندهم فِي دين الله، أو عندهم فقه لا يُؤَهِّلهم، وهؤلاء يُفسدون فِي الأرض ولا يصلحون، وهم فِي الحَقيقة سلم لأهل الأهواء.

- **الصِّنف الثالث:** دُعَاة الفتنة والضَّلال، دعاة الانحِرَاف.

وأول فرقة خَاضَت هذا المَيدَان: هم السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ اليَهُودي اليَمَنِي الذي أسلم نفاقًا.

فأول حدث أحدثوه فِي الإسلام تَحريض الناس عَلَىٰ أمير المُؤمنين وثالث الخُلَفَاء الراشدين عثمان بن عفان ﷺ حتَّىٰ قتلوه، تَحريض وتَهييج حتَّىٰ قتل الخَليفة، وهؤلاء هم -أي: السَّبئيَّة[1]- سَلَف الثوريين إلَىٰ اليوم؛ لأن من أصول أهل السنَّة والجَمَاعة اجتماع الكلمة عَلَىٰ مَن وَلاه الله أمر المُسلمين، وعَدَم شَقِّ العَصَا، وعَدَم تفريق الكلمة.

فالثوريون من بَنِي جلدتنا، أخذوا هذا الجَانب عن السبئيين، وأحداثهم فِي الإسلام كثيرة: الزندقة، والرفض، وغير ذلك.

والفرقة الثانية: هم الخَوَارج (الحَرُوريَّة) الذين خَرَجُوا عَلَىٰ عليٍّ بن أبِي طالب ﷺ أصحاب النهروان، وهم التكفيريون، ضلوا وأضلوا، كَفَّرُوا عُصَاة المُوحدين وفُسَّاق المُسلمين بالكبائر.

وسَيَأتِي لِهَذا تفصيل لاحق -إن شاء الله تعَالَىٰ-، فهذه أصناف المُنتَسبين إلَىٰ الدَّعوة، ثلاثة أصناف.

وأسعدهم: هم الصِّنف الأول: دُعَاة البصيرة والبيِّنة والفقه فِي دين الله، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفقِّهه فِي الدِّين»**[2].

---

(١) انظر: الفَرق بين الفِرَق للبغدادي (ص١٥)، و«الفصل فِي المِلَل» لابن حزم (٤/ ١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب العلم، باب: مَن يُرد الله به خَيرًا يفقهه فِي الدِّين، برقم (٧١)، ومسلم كتاب الزكاة، باب: النهي عن المَسألة، برقم (٢٣٨٦).

الآية: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [مُحَمَّد:١٩].

الشرح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّنَ الشَّاهد، فقال: فَبَدَأ بالعلم قبل القول والعمل: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ أولًا: العلم.

اعلم قبل أن تدعو الناس إِلَىٰ دين الله أنه يَجب عليك أن تتعلم، وقد ذكر الشَّيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسير هذه الآية ثَمانية أسباب لِحُصُول العلم بـ «لا إله إلَّا الله» حيث قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- **أحدها -بل أعظمها-**: تدبر أسمَائه، وصفاته، وأفعاله الدالة عَلَىٰ كَمَاله وعظمته وجلاله، فَإِنَّهَا توجب بذل الجَهد فِي التأله له، والتعبد للرَّبِّ الكامل، الذي له كل حَمد ومَجد، وجلال وجَمَال.

- **الثانِي**: العلم بأنه تعَالَىٰ هو المُنفَرد بالخَلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المُنفَرد بالألوهيَّة.

- **الثالث**: العلم بأنه المُنفَرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدِّينيَّة والدنيويَّة، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومَحَبته، والتأله له وحده لا شريك له.

- **الرابع**: مَا نَرَاهُ ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عُقُوبته لأعدائه المُشركين به، فإن هَذا داعٍ إِلَىٰ العلم بأنه تعَالَىٰ وحده المُستَحق للعبادة كلها.

- **الخَامس**: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد الَّتِي عُبدت مَعَ الله، واتُّخذت

آلِهَة، وأنَّهَا ناقصة من جَميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تَملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياة، ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونَهُم بِمثقال ذرَّة، من جلب خير أو دفع شر، فَإِنَّ العلم بذلك يُوجب العلم بأنه لا إله إلَّا الله، وبطلان إلَهيَّة من سواه.

- **السَّادس**: اتفاق كتب الله عَلَىٰ ذلك، وتواطؤها عليه.

- **السَّابع**: أن خَوَاصَّ الخَلق، الذين هم أكمل الخَليقة أخلاقًا، وعقولًا، ورأيًا، وصَوَابًا، وعلمًا -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

- **الثامن**: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، الَّتِي تدل عَلَىٰ التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حَالِهَا، بِمَا أودعها من لطف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه[1].

وأية الباب تمامها قوله تعَالَىٰ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد:١٩]. فِي الآية غير ما تَقَدَّم من العلم بـ: «لا اله إلا الله»، وهو: العلم بِمَعنَاهَا، والعَمَل بِمُقتَضَاهَا، أي: ما تدل عليه، وما تتطلبه من العباد، أمران آخران:

ففي قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ دليل عَلَىٰ أن الفاسق المِلِّي -عاصي المُوحدين- لا يَخرج من مُسَمَّىٰ الإيمَان، وهذا ما أجمَعَ عليه أهل السنَّة والجَمَاعَة، فقالوا فِي الفاسق المِلي: إنه مؤمن بإيمَانه، فاسق بكبيرته،

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمَن فِي تفسير كلام المَنان للعلامة ابن سعدي (ص٧٣١-٧٣٢).

أو يقولون: مؤمن ناقص الإيمَان؛ خلافًا للوعيدية من الخَوَارج والمُعتزلة[١].

فإن الخَوَارج يُكَفِّرُون مرتكب الكبيرة فِي الدنيا، ويستحلون دَمَهُ وماله، وإن مات دون توبة فهو عندهم خَالد ومُخَلد فِي النار.

ومذهب المُعتزلة: يُخرجون الفاسق المِلِّي من الإسلام، ولا يكفرونه، بل يَجعلونه فِي مَنزِلة بين المَنزلتين لا مؤمن ولا كافر، هذا حكمهم عليه فِي الدنيا، وأمَّا فِي الآخرة فيقولون: إن مات دون توبة فهو خَالد مُخَلد فِي النار، فوافقوا الخَوارج فِي حكمه الأخروي، واختلفوا معهم فِي حكمه فِي الدنيا، وكلتا الطائفتين قد ضلت وأضلت.

وهَدَىٰ الله ﷻ أهل السنَّة والجَمَاعَة إلَىٰ القول الحَقِّ، والمُعتَقد الصَّحيح، والمَنهَج السديد؛ إذ كَانَ عملهم وفق النصوص من القرآن وسنَّة رسول الله ﷺ، فَجَمَعُوا بين الوعد والوعيد، فقالوا -أي: أهل السنَّة والجَمَاعَة-: إن مرتكب الكبيرة فِي الدنيا مؤمن بإيمَانه، فاسق بكبيرته، وأمَّا فِي الآخرة فهو تَحت مشيئة الله، إن شاء الله غَفَرَ له ورَحِمَه وأدخله الجَنَّة، وإن شاء عَذَّبه، ولكنه لا يخلد في النار.

والأمر الثانِي الذي تضمنته الآية: فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ فيه دليل عَلَىٰ إحاطة علم الله ﷻ بأعمال العباد، ومُجَازاتِهم عليها، وهَذَا يقتضي من العبد مراقبة الله ﷻ فِي السِّرِّ والعلانية، وأن الله مُجَازٍ كلًّا بعَمَله، فَمَن وَجَدَ خَيرًا فليحمد الله، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلَّا نفسه.

❊❊❊

---

(١) انظر: «فتح المَجيد شرح كتاب التوحيد» لعبد الرَّحمَن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٥٣).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم -رَحِمَكَ الله- أنه يَجب عَلَىٰ كل مُسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث المَسَائل والعَمَل بِهنَّ.

الأولَىٰ: أن الله خَلَقَنا ورَزَقَنا، ولَم يتركنا هَمَلًا، بل أرسل إلينا رَسُولًا، فَمَن أطاعه دخل الجَنَّة، ومَن عَصَاه دخل النار.

والدليل: قوله تعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦].

الشــرح

فَإِنَّ هذه المَسَائل الَّتِي ذكر الشَّيخ هي مَسَائل اعتقادية، والَّتِي مَضَت مَسَائل عَمَليَّه.

المَسألة الأولَىٰ: ما ذكره من أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خلقنا -أي: أوجدنا من العدم-، نعمة الإيجَاد.

«**ورزقنا**»: وهذه نعمة الإمداد.

«**ولَم يتركنا هَمَلًا**»: لَم يَجعلنا سُدًىٰ مضيعين.

«**بل أرسل إلينا رسولًا**»: هو مُحَمَّد ﷺ، فبعد نعمة الخَلق ونعمة الرزق تأتِي نعمة الإعداد للحكمة الَّتِي خلق الله الخَلق من أجلها وهي عبادته، وعبادته هذه لا يدركها الناس تَمَام الإدراك، ولا يؤدونَهَا حق الأداء كما يريد الله منهم إلَّا بإرسال الرسول.

والرسول فِي اللغة: من بعث برسالة، فَعُول بِمَعنَىٰ: مُفعَل، رسول بِمَعنَىٰ: مُرسَل.

وفِي الاصطلاح: رجل من بَنِي آدم أوحىٰ الله إليه بشرع وأمره بتبليغه.

ولا بد قبل بيان مَعنَىٰ الآية، ووجه دلالتها عَلَىٰ هذه المسألة أن نبين مهام النَّبِي ﷺ، كَمَا دل عليها الكتاب الكَريم وسنَّة نبيناﷺ.

أولَىٰ المُهمات: أنه شاهد، شاهدٌ للخلق، وشاهد عليهم، شاهد لَهُم بِمَا عملوا به من سنته، وشرع الله الذي جاء به، وشاهد عليهم بِمَا تركوه، ولَم يعملوا به.

المُهمَّة الثانية: البشارة والنذارة، وهي البشارة بالجَنَّة للمطيع، والنذارة -وهي التخويف بالعقاب- للعاصين.

الثالثة: الحُكم بين الناس، والفصل فِي خُصُومَاتِهم.

الرَّابعَة: تعليم الناس شرع الله.

هذه أهم وظائف الرسولﷺ، فدلالة هذه الآية عَلَىٰ هذه المَسألة واضحة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦]، والرسول الذي أرسله الله إلَىٰ فرعون هو: موسىٰ ﷺ، ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ﴾.

وجه الدلالة عَلَىٰ أن مَن أطاع النَّبِي مُحَمَّدًا ﷺ دَخَلَ الجَنة، ومن عَصَاه دخل النار: وفِي ذكر ما ناله فرعون عَلَىٰ معصيته لِمُوسَىٰ ﷺ، إن الله ﷻ يُحَذر هذه الأمة من معصية نبيِّه ﷺ، وأنَّ العاصي منها سيلقىٰ ما لقيه العُصَاة المُكَذبون لرسلهم، فهو يقول: مَن عَصَىٰ مُحَمَّدًا منكم؛ فإنه عُرضة لأخذ الله إيَّاه الأخذ الوبيل، كما أخذ فرعون عَلَىٰ معصيته لِمُوسىٰ ﷺ، فهذه الآية تدل عَلَىٰ وجوب

طاعة النَّبِيِﷺ فيما يأمر به، والتحذير من معصيته.

ويدل عَلَىٰ وجوب طاعة النَّبِيِﷺ، والحَذَر من معصيته من السنَّة: ما رواه البخاري فِي صحيحه عن أبِي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ. قِيلَ: وَمَن يَأبَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ**»[1].

۞۞۞

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم الحَديث (٧٢٨٠).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **الثانية: أنَّ الله لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد فِي عبادته، لا ملك مُقرَّب، ولا نبي مُرسل، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن:١٨].

الشـــرح

هذه المَسألة الثانية، وهي تدل عَلَىٰ المَنهَج الصَّحيح والقاعدة السَّديدة فِي العبادة، وذلك أنَّ الله لا يرضىٰ أن يشرك معه فِي عبادته، لا ملَك مُقرَّب، ولا نبِي مُرسل، هذا ما اتفقت عليه كلمة الرسل من نوح إلَىٰ مُحَمَّد -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فكل الرسل دَعوا قومهم إلَىٰ إخلاص العبادة لله، ولَم يَدعُ الرسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- إلَىٰ عبادة الله هكذا مطلقة، بل مُقيَّدَة بالإخلاص.

*** ولنأخذ أمثلة عَلَىٰ ذلك:**

المِثَال الأول: قوله تعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. دلت هذه الآية عَلَىٰ اتفاق الرسل عَلَىٰ دَعوَة الناس إلَىٰ التوحيد الخَالص والعبادة الخَالصَة، فإن الله لا يقبل من العبادة إلَّا ما كان خَالصًا له تَعَالَىٰ.

ثانيًا: ما قَصَّهُ الله تَعَالَىٰ علينا من خبر صَالِح وهود، وقبلهما نوح -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فكلهم قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٩]. وهذا هو توحيد الألوهيَّة الذي كان فيه النِّزَاع والخُصُومَة بين النبيين وأمَمهم، وتوحيد الألوهية هو توحيد الله بأفعال العباد الَّتِي شرعها لَهُم؛ وأمرهم أن يعبدوه بِهَا، ومن أجل هذا التوحيد كانت المُفَاصلة والعداوة والبغضاء وحز الرءوس.

* **قوله: «لا ملك مقرب»:**

المَلك: واحد المَلائكة، مَأخُوذ من الألوكة وهي الرِّسَالة، والمَلائكة: عباد الله المُكرمون الذين لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، ومادة خلقهم النور، كَمَا صَحَّ بذلك الخَبَر عن رسول الله ﷺ[1]، فالإنس مَخلوقون من التراب، والجَان مَخلوقون من نار، والمَلائكة مَخلوقون من نور، وهم مُقَرَّبون إلَىٰ الله تعالى مكانًا ومَكَانة.

فمن حيث المَكَان: فَهُم فِي السَّمَوَات.

ومن حيث المَكَانة: اصطفاء الله لَهُم، وجعلهم رُسُلًا مُكَلفين بوظائف، ومنهم جبريل -عليه الصَّلاة والسَّلام- أمين الله عَلَىٰ وحيه، وسفيره إلَىٰ أنبيائه ورسله.

والنَّبِي: مأخوذ من «النباوة» بِمَعنَىٰ المَكَان المُرتفع، أو من «النبأ» وهو الخَبَر العظيم[2].

واصطلاحًا: رَجُل من بنِي آدم أوحىٰ الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه، أو جَاءَ بتقرير شريعة سابقة.

وهَذَا هو غير التعريف المَشهور، فالتعريف المَشهُور خطأ، والتعريف الذي كَانَ مَشهُورًا عندنا: أنَّ النَّبِي اصطلاحًا: رجل أوحي إليه بشرع، ولَم يُؤمَر بتبليغه.

---

(١) أخرج مسلم فِي صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: «**خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِن نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم**». كتاب الزهد والرقائق، باب: فِي أحاديث مُتَفَرِّقة، برقم (٧٤٢٠).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١/ ١٦٢).

هذا قاصر.

والصواب -إن شاء الله- ما قررته آنفًا: رَجُل من بَنِي آدم أوحىٰ الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه، أو جاء بتقرير شريعة سابقة.

مثل: أولِي العزم، وصَالِح، وشعيب، وهود.

أو جاء بتقرير شريعة سابقة: كأنبياء بَنِي إسرائيل بين مُوسَىٰ وعيسىٰ، فإنَّهُم جاءوا بتقرير شريعة موسىٰ مثل: يوشع بن نون ﷺ.

والدليل عَلَىٰ أن النَّبِي مُرسَل مثل الرَّسُول: قول الحَق ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]. فالآية نص عَلَىٰ أن النَّبِي مُرسَل مثل الرَّسُول، ولا يعرف أن الله أوحىٰ إِلَىٰ رَجُل وأمره بالقعود فِي بيته.

ولعله يزيد هذا توضيحًا: قوله ﷺ: «**كَانَت بَنُو إِسرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنبِيَاءُ، فَكُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلفَهُ نَبِيٌّ، ولا نَبِيَّ بَعدِي**»[1]. قد جَعَلَ الله سياسة هذه الأمَّة فِي العلماء؛ فالأنبياء دعاة ومعلمون ومرشدون، ومنهم من هو رسول نبِي، وهو من كانت شريعته مستقلة، ومنهم من هو نبِي، وهو من جاء مقررًا لشريعة مَن قبله.

هذه الآية: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾:

المَسَاجِدَ: مواضع الصَّلاة، سواء كانت مَبنيَّة أو أرضًا لا بناء فيها، وسُمِّيت

---

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بنِي إسرائيل، رقم الحَديث (٣٤٥٥).

المَسَاجِدَ: لأنَّهَا مواضع السجود، والسجود أشرف أركان الصلاة وأعظمها.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: نَهيٌ عن الشرك عامة وعن الدعاء مع الله خاصة؛ لأن «**الدعاء هو العبادة**»(١) كما قال ﷺ.

والشرك فِي اللغة: التسوية.

وفِي الاصطلاح: تسوية غير الله بالله.

۞۞۞

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، برقم (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة، برقم (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الثالثة: أن من أطاع الرسول ووَحَّدَ الله؛ لا يَجُوز له موالاة من حَادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

الشرح

وهذه المَسألة من أعظم قَواعد الدِّين؛ لتضمنها قاعدة «الولاء والبراء».

فالولاء: الحُب فِي الله، والمُناصرة فيه.

والبراء: هو البغض فِي الله، والمُعَادَاة فيه.

*** قَالَ الشيخ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بعض رسائله:**

«**وأصل الدين وقاعدته أمران:**

الأول: الأمر بعبادة الله وحده، والتحريض عَلَىٰ ذلك، والمُوَالاة فيه، وتكفير من تركه.

والأمر الثانِي: النهي عن الشرك فِي عبادة الله، والتغليظ فِي ذلك، والمُعَاداة فيه، وتكفير من فعله»[1].

---

(١) الواجبات المُتحَتمَات (ص٥).

قوله: «أن من أطاع الرسول ووحد الله»:

العبادة لا تسمىٰ عبادة عَلَىٰ الوجه الصحيح حتَّىٰ يَجتَمع فيها هَذَان الأمران: طاعة رسول الله ﷺ -وتعنِي: تَجريد المُتَابعَة له ﷺ-، وتوحيد الله -يَعنِي: تَجريد الإخلاص-.

*** لا يَجُوز له مُوَالاة من حاد الله ورسوله:**

المُوَالاة: هي المَحَبة والنصرة فِي الله، وهي المُوادة؛ لأن الحُب فِي الله والبغض فِي الله من تمام الإيمان، قال ﷺ: **«مَن أَحَبَّ فِي الله، وَأَبغَضَ فِي الله، وَأَعطَىٰ لله، وَمَنَعَ لله؛ فَقَدِ استَكمَلَ الإِيمَانَ»**[1].

وفِي الصحيحين عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قَالَ: **«ثَلاَثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَن يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ بَعدَ أَن أَنقَذَهُ الله مِنهُ كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ»**[2].

فالشَّاهد من الحَديث: «أَن يُحِبَّ المَرءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لله». فالبغض فِي الله يَجب، وإن كان مع أقرب الناس؛ ما دام مُحَادًّا لله، ومعاندًا شرع الله، وإن كان أقرب الناس.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنَّة، باب: الدليل عَلَىٰ زيادة الإيمَان ونقصانه، برقم (٤٦٨١)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع (٥٩٦٥).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمَان، باب: حلاوة الإيمَان، برقم (١٦)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: بَيَان خصال من اتَّصَفَ بِهن وجد حلاوة الإيمَان، برقم (١٦٣).

واستدل الشيخ بِهَذه الآية من سورة المُجَادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

﴿لَّا تَجِدُ﴾: الخطَاب أولًا لرسول اللهﷺ، وأمته تبعًا له فِي هذا الخِطَاب.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: قَالَ: ﴿يُوَآدُّونَ﴾: لا يُمحضون أهل الكفر والفسق والفجور، والمَوَدَّة، قد يتعاملون معهم، ولكن لا مَوَدَّة بينهم؛ لأن المَودَّة لأعداء الله تنقض قاعدة الولاء والبراء.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: عَامًّا كائنًا من كان، وإن كان أقرب الناس كالآباء، والأبناء، والإخوة، والعشيرة، وهذا الأصل الأصيل -أعنِي: قاعدة الولاء والبراء- لا يفقهها حق الفقه إلَّا أهل السنَّة والجَمَاعة -جعلنا الله وإياكم منهم فِي الحَيَاة وبعد المَمَات-، فالمُوَادَّة غير التعامل.

وهنا سؤال، هذه الآية من أعظم الأدلة عَلَىٰ الحَذَر من البدع وإنكارها والتنكر لَهَا، بقي المُبتدعَة كيف يكون التعامل معهم؟

* **البدعة ثلاثة أصناف:**

- **أولًا: مُكَفِّرَة**: كبدعة الرفض، والتجهم، والحُلول ووحدة الوجود.

- **ثانيًا: مُفَسِّقَة**: كبدعة الاعتزال والتَّمَشعر.

- **ثالثًا: دون ذلك**: كالذكر الجَمَاعي.

هذا هو فقه البدعة الذي بينه السَّلف: فالبدعة المكفرة الأمر فيها واضح أنَّهَا مكفرة، وهذه أظنها لا تَحتَاج إلَىٰ وقفة ما دامت مكفرة، فالكل متفق عَلَىٰ

إنكارها، وإنَّمَا الخِلاف اليوم فِي البدع المُفَسِّقَة وما دون ذلك.

نقول: السَّلَف مُجمعون عَلَىٰ إنكار البدع حتَّىٰ المُفَسِّقَة وما دونَهَا، فقد ثبت عنهم بالتواتر زجر المُبتَدعَة، وإنكار البدع دون تفريق، فلم ينقل عنهم أن الإنكار عندهم مقصور عَلَىٰ البدع المُكَفِّرَة.

والأصل هو هجر المُبتَدع، هذا هو الأصل هجره وزجره إن كان مُظهرًا بدعته، داعية إليها، ومن ذلك أنَّهُم قَرَّرُوا: عدم قبول رواية المُبتَدع إذا رَوَىٰ ما يُقَوِّي بدعته، إمَّا إذا كان المُبتَدع لَم يَدعُ إلَىٰ بدعته، أو لَم يَروِ ما يدعو إلَىٰ بدعته؛ فَإِنَّهُم يقبلون روايته، قال الذهبِي فِي ترجَمَة أبان بن تغلب: «شيعيٌّ جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه، وعليه بدعته»[(١)].

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره هذا -أعنِي: هجر المُبتَدع وزجره إذا كان داعيًا إلَىٰ بدعته، مظهرًا لَهَا، مقررًا لَهَا-، إلَّا إذا ترتب عَلَىٰ هجره مَفسَدة أكبر من هجره فإنه لا يُهجر؛ لأن الهَجر ليس أمرًا شَخصيًّا غايته التشفي، بل هو عُقُوبَة شَرعيَّة.

فإذا كانت الغلبة والقوة لأهل السنَّة نفع هجر المُبتَدع وزجره، وإذا كانت الغلبة لأهل البدع والشوكة لَهُم لَم يهجر المُبتدع خشية المَفسَدَة؛ لأن المَدَار عَلَىٰ تَحقيق المَصَالِح وتكثيرها ودرء المَفَاسد وتقليلها، وهذا فقه عظيم وأدلته من السنَّة ظاهرة مُستَفيضَة.

روىٰ البخاري وغيره: عن عائشة ﵂: «أَنَّهُ استَأذَنَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ

---

(١) ميزان الاعتدال (١/ ١١٨).

فَقَالَ: ائذَنُوا لَهُ، بِئسَ أَخُو العَشِيرَةِ -أَو: ابنُ العَشِيرَةِ-. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيهِ أَلاَنَ لَهُ القَولَ، تَطَلَّق فِي وَجهه، فَلَمَّا خَرَجَ قَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ الله، قُلتَ مَا قُلتَ، وَأَلَنتَ لَهُ القَولَ؟ قَالَ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَن وَدعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحشِهِ»[(١)]. فليفقه الدعاة هذا الجَانب -هجر المُبتَدع- ضمن قاعدة «الولاء»، وهو واجب، ولكن حينما يُحقق الغرض، ولا يُخشىٰ بالهَجر مَفسَدة أكبر منه.

وفِي الصحيحين وغيرهِمَا من رواة المُبتدعة، وهم معروفون بين الناس بالبدعة[(٢)]؛ لأن الهَجر أحيانًا يترتب عليه مفاسد عظيمة إذا كان المُبتدع أو راكب البدعة له شوكة، وله قوة، وله مكانة، فهل ترىٰ أن هجره وزجره يُحَقق غرضك أيها الداعية؟

لو دخلت بلدة من البلدان شيخها قدري أو جبري أو صوفِي، فأغلظت له القول، ووقعت فيه، وشنعت عليه؛ فهل تتمكن من الدعوة؟ أبدًا، إن سلمت حياتك لن تتمكن من الدعوة، فإذن ليفقه طلاب العلم والدعاة هذا الجَانب.

فالآية الكريمَة، وهي قول الحَق -جَلَّ وعلا-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ إذا كانوا يبغضون هذه الأصناف الأربعة: الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فمن دونَهم أولَىٰ بالمُفَاصلة والمُبَاغضة إذا كانوا مُحَادين لله ولرسوله.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب: لَم يكن النبِي ﷺ فَاحشًا ولا مُتَفَحشًا، برقم (٦٠٢٣)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب: مُدَارَاة من يتقىٰ فحشه، برقم (٦٥٣٩).

(٢) انظر: توضيح الأفكار لِمَعَانِي تنقيح الأنظار للعلامة ابن الأمير الصَّنعَانِي (١/ ٩٣).

ثُمَّ بين الله ﷻ ما أثابَهُم به من الأجر، أو ثَمَرة هذه المُوَالاة فِي ذات الله، والمُعَادَاة فِي ذاته قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هذه ثَمَرة.

وماذا: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ تأييد ونصرة وحفظ.

وماذا: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ هذه المَثوبَة الثالثة.

وماذا أيضا: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أثبت عنهم الرِّضَا، فالآية دليل عَلَىٰ صفة الرِّضَا لله ﷻ.

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ رضي عنهم بِمَا قاموا به، وما أدوه من حقوق الله ﷻ، ومنها الولاء والبراء.

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بِمَا نالَهُم منه من الجَزاء العظيم.

وماذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ الناس حزبان لا ثالث لَهُمَا: حزب الله، وحزب الشيطان، فأهل طاعة الله هم حزب الله، وخَاصَّة هَذَا الحِزب أهل السنَّة والجَمَاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فلاح فِي الدنيا بِمَا مسكهم به من كتابه، واتباع سنَّة رسوله ﷺ، وما مكنهم فيه، وما هداهم إليه من صحة العقيدة والفقه فِي دين الله، والفلاح فِي الآخرة والجَنة ونعيمها، ومنه ما فِي الحديث القدسي: «**أَعدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَينٌ رَأَت، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَت، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ**»[1].

وحزب الشيطان: هم الكفار، وأهل النفاق الاعتقادي.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخَلق، باب: مَا جاء فِي صفة الجَنة وأَنَّهَا مَخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم كتاب الجَنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: صفة الجَنة، برقم (٧٠٦٣).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم -أرشدك الله لطاعته-: أنَّ الحَنيفيَّة ملة إبراهيم: أن تعبد الله وحده مُخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جَميع الناس، وخلقهم لَهَا، كَمَا قال الله تعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. ومَعنَىٰ يعبدون: يوحدون.

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو: إفراد الله بالعبادة.

وأعظم ما نَهَىٰ عنه الشرك؛ وهو: دعوة غيره معه، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء:٣٦].

الشـــرح

قول الشيخ: «اعلم -أرشدك الله لطاعته-»:

أي: هداك الله، وذلك إلَىٰ الطريق الصَّحيح، والطاعة هي: موافقة الأمر بفعله، وموافقة النهي بتركه.

* وقوله: «الحَنيفية ملة إبراهيم»:

الحَنيفيَّة: نسبة إلَىٰ الحَنيف من الحَنف، وهو المَيل، ومنه الأحنف مائل القدم، وسُمِّي إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ حنيفًا؛ لأنه مائل عن الشرك بالله إلَىٰ توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ ، وقد أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُحَمَّدًاصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع إبراهيم فِي مواضع كثيرة من كتابه؛ منها قوله تعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣].

وأثنَىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ خليله إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ بوصف الحَنيف فِي مواضع كثيرة من كتابه، منها قوله تعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠].

وفَسَّرَ الشيخ الحَنيفية الَّتِي هي ملة إبراهيم، وأمر النَّبِي ﷺ باتباعها، كما قدمنا: أن تعبد الله وحده مُخلصًا له الدين، قَالَ الله تعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]. فقد نص الله -جل وعلا- فِي هذه الآية عَلَىٰ أنه أمر الناس فِي جَميع الشرائع الَّتِي جاءت بِهَا الرسل أن يعبدوه مُخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وأخبر أن ذلك -أي: المَأمور به- من عبادة الله الخَالصة الحَنيفيَّة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ هو: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المُستَقيم الذي لا عوج فيه، سبيل الله القَويم وصراطه المستقيم.

*** قال الشيخ: «وبذلك أمر الله جَميع الناس وخلقهم لَهَا »:**

الإشارة فِي قوله: «ذلك» إلَىٰ ما تقدم من تعريف الحَنيفية، فإن العبد لَم يُخلق إلَّا لعبادة الله ﷻ، بل جَميع الثقلين -الجِن والإنس- لَم يُخلقوا إلَّا لذلك، واستدل الشيخ بقول الله تعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

*** فِي هذه الآية من الفوائد والأحكام:**

- **أولًا**: بَيَان الحِكمة الَّتِي من أجلها خلق الله الثقلين، وهي: عبادته ﷻ.

ومَعنَىٰ العبادة فِي اللغة: من التعبيد، وهو التذليل والتسخير، ومن ذلك: طريق مُعبَّد -أي: مذلل للمشي-، هذه الحَقيقة اللغوية للعبادة، يشترك فيها جَميع الخَلق، حتَّىٰ إبليس -عليه لعنة الله- عَبد لله؛ بِمَعنَىٰ أنه مسخر مقهور، لو أراد الله أن يذيبه لأذابه، ولكن يتركه إلَىٰ يوم المِيقَات المَعلوم لِحِكمَة.

وشرعًا: اسم جامعُ لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

واعلم أيها المسلم أنَّ للعبادة ثلاثة مَقَامَات يَجب جَمعها حتَّىٰ تكون العبادة صحيحة، وتلك المَقَامَات هي: الخَوف، والرَّجَاء، والمَحبَّة(١).

فالخَوف: يردع عن مَغَاضب الله.

والرَّجَاء: يطمع فِي رَحمَته.

والمَحبَّة: تَجعل الصُّدُور مُنشَرحَة لأوامر الله ونواهيه؛ لأوامر الله بالفعل، ولنواهيه بالترك.

والعبادة مع هذه الأركان لَهَا شرطان هُمَا: تَجريد الإخلاص لله وحده، وتَجريد المُتَابعَة لرسولهﷺ، هذان الشرطان لا ينفك أحدهُمَا عن الآخر.

- **الفائدة الثانية**: الإيمَان بوُجُود الجِنِّ، وأنَّهُم مُكَلَّفُون مثل الإنس، فلمطيعهم الثواب، ويستحق عاصيهم العقاب.

- **الفائدة الثالثة**: بلوغ رسالة مُحَمَّد ﷺ للجن والإنس، وقد دَلَّ الدليل الصريح من القرآن، والسنة الصحيحة عَلَىٰ ذلك، فمن القرآن سورة الجِن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

وفِي الحَديث الصحيح(٢): أن رسول اللهﷺ اجتمع بوفد الجِن، فَقَرَأ عليهم

---

(١) **قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي بدائع الفوائد** (٣/ ٥٢٢): «ومن عبده بالحُب والخَوف والرَّجَاء فهو مؤمن، وقد جَمَعَ الله تعَالَىٰ هذه المَقَامات الثلاثة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

(٢) انظر: صحيح البخاري كتاب التفسير، سورة الجِن، حديث رقم (٤٩٢١).

القرآن، ودعاهم إِلَىٰ الإسلام، فالرسالة بلغتهم كما بلغت الإنس.

- **الرَّابعَة**: الرد عَلَىٰ مَن يقول من العقلانيين والفلسفيين أتباع المَدرسَة الفَلسفيَّة العقلية المُعَاصرة: إن الجِنَّ ميكروبات وجراثيم. وهذا يكذبه الشرع، والحِس، والعقل.

فالشَّرع: ما تَقَدَّم من الآيات، وما مَضَت الإشارة إليه من الحَديث.

والعقل: لا يُعرف أنَّ الرسالة بلغت المِيكرُوبَات والحَشَرَات، فَمَن رسول الحَشَرات؟!ومعلوم أن الله ﷻ لَم يشرع الشرائع إلَّا للعقلاء من خلقه.

وأما الحِس: فقد تواتر فِي أخبار الناس، وبالنقلة العدول رؤية الجِن، ومن ذلكم أيضا أبو هريرة ﷺ رآهم فِي الحَديث الصَّحيح الذي رواه البخاري فِي كتاب الوكالة، حديث طويل، وفيه: أنَّ أبا هريرة أمسك به لَمَّا جاء يَحثو من الصَّدقة، ثلاثة أيام وأبو هريرة يُهدده برفعه إِلَىٰ النَّبِيﷺ ويتعلل، وأنه ذو عيال وصاحب حاجة، فِي المَرَّة الأخيرة لَمَّا رأىٰ عدو الله ما رأىٰ من الجَد؛ قال: يا أبا هريرة: دَعنِي وأعلمك آية إذا قَرأتَهَا لا يقربك شيطان. قال:ما هي؟ قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة:٢٥١]. إذا آويت إِلَىٰ فراشك فاقرأها فلن يقربك شيطان.

فقال له النَّبِيﷺ: «**صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، أَتَعلَمُ مَن تُخَاطِبُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ مُنذُ ثَلاَثٍ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: ذَلِكَ الشَّيطَانُ**»(١). وإِلَىٰ اليوم تبلغنا أخبار العدول فِي مشاهدات الجِن.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الوكالة، باب: إذا وكل رَجُلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه المُوكل فهو جائز، وإن أقرضه إِلَىٰ أجل مُسَمَّىٰ جاز، برقم (٢٣١١).

«ومَعنَىٰ يعبدون: يوحدون»:

والتوحيد هو: إفراد الله بالعبادة، هذا هو توحيد الألوهيَّة، والاهتمام به أكثر؛ لأن أكثر الناس منكرون له، فهو أعظم ما أمر الله به، وهو الذي وقع فيه النِّزَاع والخُصُومة بين الأنبياء وأمَمهم.

«وأعظم ما نَهَىٰ عنه الشرك»:

وقد مضىٰ تعريفه، واستدل الشيخ عَلَىٰ هذين الأمرين -أعنِي: أعظم ما أمر الله به: التوحيد، وأعظم ما نَهَىٰ عنه: الشرك- بقوله تعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦].

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾: هذا أمر.

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾: هذا نَهي.

وهذا ما تعودناه من الله ﷻ يأمر بعبادته، وينهىٰ عن الشرك به، وفِي ذلك رد عَلَىٰ بعض المُنتَسبين إلَىٰ الدَّعوَة الذين يقولون: يؤمر الإنسان بالإيمَان، يعلَّم الإيمَان ويترك، فإن الإيمَان ينهاه عن المَعَاصي! سبحان الله!! أنتم أعلم أم الله ورسوله؟! الله أعلم بِمَا يَجب له وبِمَا يكره، ورسوله أعلم الخَلق بشرع الله، قال ﷺ: **«فَإنَّهُ لَم يَكُن نَبيٌّ قَبلِي إلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيرِ مَا يَعلَمُهُ لَهَا، وَحَذَّرَهَا شَرَّ مَا يَعلَمُهُ لَهَا»**(١).

هكذا الدعوة؛ فدعوة الله عَلَىٰ بصيرة تأسيًا برسولهﷺ تتضمن الأمر بالطاعات وأعظمها التوحيد، والنهي عن المَعَاصي وأعظمها الشرك بالله.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخُلَفَاء الأول فالأول، رقم (٤٧٥٣).

وفِي الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ: أَيُّ الذَّنبِ أَعظَمُ؟ قَالَ: أَن تَجعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. قُلتُ: إنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: أَن تَقتُلَ وَلَدَكَ خَشيَةَ أَن يُطعَمَ مَعَكَ. قُلتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: أَن تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكِ»[1].

وأنزل الله تصديق نبيِّه ﷺ فِي هذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان:٦٨] الآية. فانظروا ماذا تَضَمَّن الحَديث؟

لقد تضمن مناهي، وأعظمها الشرك بالله؛ فإذن هَذَا القائل الذي يدعو الناس إِلَىٰ الإيمَان، ويدعو إِلَىٰ تركهم بعد ذلك، إمَّا جاهل بفقه دعوة النَّبي ﷺ، وإما ضال مُضل صاحب بدعة.

❊❊❊

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب: قوله تعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾. برقم (٤٤٧٧) مسلم فِي الإيمَان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبَيَان أعظمها بعده، رقم (٢٥٣).

قَالَ المُصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة الَّتِي يَجب عَلَىٰ الإنسان معرفتها؟

فقل: معرفة العبد ربَّه، ودينه، ونبيه مُحَمَّدًا ﷺ.

الشـــرح

الأصول: جَمع أصل، وهو فِي اللغة: ما يُبنَىٰ عليه غيره ويتولد منه، كالأساس أصل البناء، والجِذع أصل الشجرة، قال تعَالَىٰ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤]. فأصلها: جذعها.

وفِي اصطلاح أهل العقيدة: أصول الدين وقواعده وأسسه الَّتِي يُبنَىٰ عليها.

وهذه الثلاثة هي ثابتة بالكتاب والسنَّة وإجمَاع المُسلمين -وهي: معرفة العبد ربَّه ودينه ونبيه مُحَمَّدًا ﷺ- وهي مسائل القبر الثلاث، فإن المَيت إذا وضع فِي قبره، وتولَّىٰ عنه أهله أتاه المَلكان فأقعداه، وسألاه هذه الأسئلة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فإن كان مُؤمنًا قال: ربِّي الله، ودينِي الإسلام، ونبيي مُحَمَّدٌ ﷺ.

وإن كان غير ذلك قال: هاه هاه لا أدري، سَمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من أجاب بالفتيا بإشارة اليد والرأس، برقم (٨٦)، وانظر: مسند أحمد (ج٣٧/ ص٤٩٠)، حديث البراء الطويل، وسنن أبي داود كتاب السنة، باب في المسألة وعذاب القبر، وانظر صحيح الجامع رقم (١٦٧٦).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأصل الأول: معرفة الرب، فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربِّي الله الذي ربَّانِي. وربَّىٰ جَميع العَالَمين بنعمه، وهو معبودي، ليس لِي معبود سواه، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. **وكل من سوىٰ الله عَالِم، وأنا واحد من ذلك العَالَم.**

الشرح

معرفة الرب تقتضي الإيمَان به، والإيمَان بِمَا يستحقه من العبادة الخَالصَة والأسمَاء الحُسنَىٰ والصِّفَات العلا، وبدأ الشيخ به لأنه أصل الأصول.

والرب يطلق عَلَىٰ: المَالك، والسيِّد، والمَعبُود، ولا تَجتمع كلها إلَّا فِي الله ﷻ، المَخلوق قد يكون ربًّا بِمَعنَىٰ سيدًا، أو بِمَعنَىٰ مالك وسيد، لكن لا تَجتَمع مع المَعبود، إلَّا لله ﷻ فهو المَالك السيِّد المَعبود الذي له الخَلق والأمر شرعًا، وقدرًا، وملكًا، واستحقاقًا، وتدبيرًا، وتصريفًا.

قوله: «**ربِّي الله**»: أي: معبودي، كما روي عن ابن عباس[1] تفسير (الله): «ذو الألوهية والعبودية عَلَىٰ خلقه أجمَعين». فلفظ (الله) و(الإله) من الألوهية بِمَعنَىٰ العبادة، فالله مألوه، بِمَعنَىٰ معبود.

«**الذي ربَّانِي**»:

*** وتربية الله للمكلفين عَلَىٰ ضربين:**

أحدهُمَا: تربية بالنعم المَادية، أو نقول: تربية التغذية والإمداد بأصناف نعم

---

(١) أثر ابن عباس عند ابن جرير الطبري فِي تفسيره (١/ ٧٨).

المَعَاش.

الثانِي: تربية الله لعباده بِمَا أنزله عَلَىٰ رسله من وحيه، هذه التربية الدينيَّة.

إذن يُمكن أن نقول: إن تربية الله عباده منها ما هو دنيوي، ومنها ما هو دينِي، والنعم جَمع نعمة.

وقوله: «وهو معبودي، ليس لِي معبود سواه»:

هذا هو تَحقيق مَعنَىٰ لا اله إلا الله، وصحته: لا معبود بِحَق سواه. أو: لا معبود حق إلَّا الله. هذا هو تَحقيق مَعنَىٰ «لا اله إلا الله».

الآية الكَريمَة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

«الحَمدُ»: هو الثناء عَلَىٰ الله ﷻ، وموجب الحَمد نعمه الظاهرة والباطنة.

والحَمد يفرق بينه وبين الشكر: فالحَمد يكون عَلَىٰ النعمة والمُصيبة، والشكر لا يكون إلَّا عَلَىٰ النعمة، والحَمد يكون باللسان فقط، والشكر يكون باللسان والقلب والجَوَارح.

قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ منِّي ثلاثة … يدي ولسانِي والضميرَ المُحجبا

يدي: من الجَوَارح. اللسان: القول. الضمير المُحجبا: القلب.

فالإنسان يقول للمنعم عليه: شكر الله لك، جزاك الله خَيرًا؛ هذا باللسان، وقد يَمد يده ويصافحه، وكذلك يستشعر بقلبه أنه أنعم عليه، وبدأ الله ﷻ أربع سور غير الفَاتِحَة بالحَمد مُتبعًا ذلك بِمُوجب الحَمد، فهذه الآية موجب الحَمد ربوبيته الله لعباده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربوبيته لعباده.

﴿ فما السور الأخر الأربع؟

- **الأولى**: الأنعام، أولُها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، **فموجب الحَمد**: خلق السَّمَوَات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

- **السورة الثانية**: الكهف، قال فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، **موجب الحَمد فيها**: إنزال الله الكتاب عَلَىٰ رسوله ﷺ، الكتاب الهَادي المُستقيم القَويم.

- **السورة الثالثة**: سبأ، أولُها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١]، **فموجب الحَمد**: ملكه للسَّمَوَات والأرض وما فيهما.

- **الرابعة والأخيرة**: فاطر، يقول فيها ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، **موجب الحَمد**: كونه فطر السَّمَوات والأرض، وجعل المَلائكة رُسُلًا.

وأمَّا ذكر الحَمد فِي ثنايا القرآن فيزيد عن الأربعين مَوضعًا.

وتفسير الشيخ: «للعَالَمِين». بعَالَم هذا صحيح، جَمع عَالَم، والعَالَم أو العَالَمين لا مفرد له من لفظه، مثل الأهلين لا مفرد له من لفظه.

والعَوالِم: هي جَميع المَخلوقات من سَمَوات، وأرض، وملائكة، وإنس، وجن، ودواب؛ كلها عَوالِم، فهي مدينة لله ﷻ، خاضعة لسلطانه وهو مليكها ومصرفها وإلَهها.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: فإذا قيل لك: بِمَ عرفت ربك؟

فقل: بآياته، ومَخلوقاته.

ومن آياته: الليل، والنهار، والشمس، والقمر.

ومن مَخلوقاته: السَّمَوَات السبع، والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

الشرح

«بِمَ عرفت ربك؟»:

أي: بأي شيء تعرفت عليه، واستدللت عليه أنه إلَهك وخالقك وسيدك وربك، لابد من أدلة وبراهين، وقد نصب الله تَعَالَىٰ فِي كتابه من الأدلة والبراهين عَلَىٰ وحدانيته ما قامت به الحُجَّة عَلَىٰ العباد، وأنه المُستَحق وحده للعبادة، وجاءت بِهَذه البراهين الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، وأبانوها للعباد حق البيان.

«فَقُل: عرفته بآياته»:

الآيات: جَمع آية، وهي فِي اللغة: العلامة.

* **وآيات الله ثلاث أصناف:**

- **آيات مُنَزلة عَلَىٰ الرسل**: وهي وحيه الذي أوحاه الله إلَىٰ كل رسول،

وأمره أن يبلغه قومه.

ومن الآيات المُنَزلة مثل: القرآن، والتوارة، والزبور، والإنجيل، وصحف موسىٰ، وصحف إبراهيم، وغير ذلك مِمَّا لَم يُسَمِّ الله ﷻ .

- **آيات آفاقية أو أفقية مَخلوقة:** منها السَّمَوَات والأرض، والشمس والقمر ما يشاهد فِي الكون منها.

مضىٰ صنفان من آيات الرب الدالة عَلَىٰ وحدانيته: ربوبيته، وألوهيته، وأسمَائه وصفاته.

- **آيات نفسية:** وهي ما يلحظه الإنسان فِي نفسه من عجيب صنع الله ﷻ : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت:٥٣].

فعرفنا آيات الرب الدالة عَلَىٰ وحدانيته ثلاثة أصناف هي:

الأول: **مُنَزلة:** هذه غير مَخلوقة؛ لأنَّهَا كلامه.

الثانِي: أفقية أو آفاقية.

الثالث: آيات نفسية، وهَذَان الصِّنفان مَخلوقان.

«فَقُل: عرفته بآياته ومَخلوقاته»:

الحَقيقة أن المَخلوقات داخلة ضمن الآيات، ولكن هذا من باب التَّكرَار وليس المُغَايرة؛ لأن كل مَخلوق آية، وليس كل آية مَخلوقًا، فبينهما عموم وخصوص، «عرفته بآياته ومَخلوقاته» من عطف الخَاص عَلَىٰ العام، فكل مَخلوق آية، وليس كل آية مَخلوقًا كما قدمنا.

ثُمَّ ذكر الشيخ من الآيات الَّتِي هي مَخلوقة: الشمس والقمر، والليل والنهار، واستدل عليها بآية فصلت، وهي قوله تعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ﴾ أي: من العلامات الدالة عَلَىٰ وحدانيته: ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ تخصيص هذه الأربع لعظمها، وهي أبرز الآيات المَخلوقة المُشَاهدة.

فالليل والنهار بينهما اختلاف طولًا وقصرًا، ظلمةً ونورًا؛ وذلك عبرة، كما قال تعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢]. يطول هذا ويقصر هذا، يَأتِي هذا ويذهب هذا، والشمس ضياء النهار وسلطانه، والقمر ضياء الليل وسلطانه.

وفِي قوله تعَالَىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فِي تَخصيص النهي عن السجود للشمس والقمر تنبيه إِلَىٰ أن بعض الكفار كانوا يسجدون لَهُمَا؛ لِمَا يرونه من عظمهما وخصائص كل منهما، ومن خصائص الشمس والقمر ما له دخل حتَّىٰ فِي النبات، حتَّىٰ فِي المَدِّ والجَزر، فبعض المشركين كانوا يسجدون لَهُمَا: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ قال: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

السجود يَجب أن يكون لله، والسجود ينصرف أكثر ما ينصرف إِلَىٰ الهَيئة المَعرُوفَة فِي الصَّلاة، وهو وضع السَّبعَة الأعضاء فِي الأرض، كَمَا قَالَ ﷺ: «**أُمِرتُ أَن أَسجُدَ عَلَىٰ سَبعَةِ أَعظُمٍ** -فبيَّنها- قَالَ: **الجَبهَةُ، وَالأَنفُ، وَالكَفَّان، وَالرُّكبَتَان، وَأَطرَافُ القَدَمَينِ**»[1]. ويعبر به عن الصَّلاة لأنه أشرف أركانِهَا؛ ولِهَذَا

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان، باب: السجود عَلَىٰ سبعة أعظم، برقم (٨٠٩)، ومسلم =

قال ﷺ فِي السجود: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَن يُستَجَابَ لَكُم»(١). أي: حريٌّ بالاستجابة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إذا كنتم صادقين فِي عبادة الله فـ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ هُمَا مَخلوقان مُسَخَّرَان، ليس لَهُمَا من العبادة شيء.

وفِي الآية ملحظ آخر: وهو أن المُشركين لَهُم عبادات، مثل الصَّدقة والحَج والعتق، لكن عباداتُهم ليست خالصة بل مشتركة، والله لا يقبل من العبادة إلَّا ما كان خالصًا: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فاسجدوا له هو، لا تسجدوا لغيره.

❀❀❀

=

كتاب الصلاة، باب: أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس فِي الصلاة، برقم (١٠٩٨) من حديث ابن عباس ﷺ.

(١) رَوَاهُ مسلم كتاب الصلاة، باب: النهي عن قراءة القرآن فِي الركوع والسجود، برقم (١٠٧٤) من حديث ابن عباس ﷺ.

قال المُصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله تعالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الشـــرح

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾:

بيَّنا مَعنَىٰ الرب قبل قليل، لكن فِي الآية أمور جَدَّت علينا لَم نبينها سَلفًا، وهي ما نصبه الله فِي هذه الآية من الأدلة عَلَىٰ وحدانيته، فأرجو تأمل هذه الأدلة:

الأول: خلق السَّمَوات والأرض فِي ستة أيام، هذه الستَّة بينت فِي موضع آخر هو فِي سورة فصلت: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

يَومَان خَلَقَ فيهما الأرض، ويَومَان خَلَقَ فيهما السَّمَاء، ويَومَان كان فيها بقيَّة المَخلوقات، والله قادر عَلَىٰ أن يَخلقها جَميعا بكن فتكون.

قال أهل العلم: إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُعَوِّدُ عباده بِهَذا الطريق إلَىٰ التأنِّي والحِكمَة؛ لأنه لا يعجز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(١).

---

(١) انظر: الجَامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٩٥)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٠٧).

وقال أهل العلم: مقدار ستة أيام؛ لأن ليس فِي ذلك الوقت علامة ليل ولا علامة نَهَار، لكن نَحن نقول: ستة أيام؛ لأن الله لا يَحتاج إلَىٰ مقدار، نقول: ستة أيام، كَمَا قال الله تعَالَىٰ، وهو يعلم ﷻ أنَّ الليل ينتهي بِحَد، والنهار ينتهي بِحَد، ستة أيام كَمَا قال.

هذا الدليل الأول، هذا الخَلق العظيم العجيب المُتقَن أُوجد فِي هذه الستة أيام، وهو قادر أن يوجده كلمح بالبصر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]. كلمة واحدة لا يكررها؛ وهي «كن»، ما يَحتاج إلَىٰ تكرارها كُونِي سَماءً وأرضًا يكن كذلك.

الثانِي: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ وهذا دليل عَلَىٰ أن الإستواء عَلَىٰ العرش كان بعد خلق السَّمَوَات والأرض، أمَّا خلقُهُ (العرش) فهو قبلهما بِخَمسين ألف سنة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بِمَعنَىٰ: علا وارتفع، وهذا هو أحد معانٍ ثلاثة جاءت فِي القرآن بِمَعنَىٰ الاستواء، هذا، ومواضع أخرىٰ شبيهه، والمَعنيان الآخران: قصد، واستقر.

فقصد: فِي مثل قوله تعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]. أي: قصد إليها، وعمد إليها.

والاستقرار: فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]. أي: إذا استقررتُم، فالآية فيها دليل عَلَىٰ اتِّصَاف الرب ﷻ بصفة الاستواء.

*** وهل هي ذاتية أم فعلية؟**

فعلية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ يَعنِي: خَلَقَ السموات والأرض: ﴿ثُمَّ

ٱسْتَوَىٰ﴾ فهي صفة فعلية، هَذَا هو الدليل الثانِي.

الثالث: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]. وفِي آيات أخرىٰ: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران:٢٧]. الليل يغشىٰ النهار فتصير الدنيا مُظلمة، والنهار يغشىٰ الليل فتصير الدنيا مُنيرة، هَذَا الدليل الثالث.

الرابع: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ سريعًا، كل واحد يطلب الآخر، فالليل لا يدرك النَّهَار، والنَّهَار لا يدرك الليل.

والدليل الخَامس: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

عرفنا بعض الحِكَم من الشَّمس والقمر، لكن النجوم لأي شيء خَلَقَهَا الله ﷻ؟ علامات يُهتدىٰ بِهَا، وزينة للسَّمَاء، ورُجُومًا للشياطين.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

له الخَلق: لا يشاركه فيه أحد، هو المَالك له.

وله الأمر: قدرًا، وشرعًا، الأمر القدري والأمر الشرعي.

فالأمر الشرعي: هو التكليف والرسالات.

والأمر القدري: قَضَاؤُهُ وقَدَرُهُ فِي الكون.

قوله -جل ذكره-: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أثنىٰ علَىٰ نفسه ﷻ بِهَذه الجُملة.

والبركة فِي اللغة: الزيادة، زيادة الشيء ونَمَاؤه، و﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ كمل ﷻ حاز الكَمَال كله من جَميع الوجوه، وهذه الكلمة «تبارك» لا تأتِي إلَّا بلفظ المَاضي، ولا تستعمل إلَّا فِي حَقِّ الله ﷻ.

*** وهل يدعىٰ بالبركة للإنسان، وكيف ذلك؟**

فَالجَوَاب: الدعاء بالبركة للإنسان جائز، والكيفية هكذا: «بارك الله لك، أو بارك عليك»، وهذا الأمر مُبَارك.

واللفظة الشَّائعة بين عَامَّة الناس، وهي: «مبروك عَلَىٰ فلان كذا» خاطئة، ومُخَالفة للاستعمال الصَّحيح لغةً، فـ «مبروك» فعلها بَرَكَ، أَمَّا «مبارك» ففعلها بارك، فلا تستعملوا مبروكًا استعملوا مباركًا؛ أما فعل «مبروك» فهو بَرَكَ.

والعَامَّة لا يريدون بقولِهم: «مبروك عليه» أي: بورك عليه، لكن خطأ فِي التعبير، فهم يريدون الدعاء له بالبركة، لا يريدون الدعاء عليه بالبروك، لا يريدون هذا أبدًا، لكن التعبير خطأ، فيقال: بارك الله عليك، وهذا عليه مُبَارك، النجاح مُبَارك، الزواج مُبَارك -إن شاء الله-، أَمَّا الزواج مبروك، والنجاح مبروك؛ فخطأ لِمَا قَدَّمنَا.

﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ سبحانه وتعالَىٰ فلا يَخرج عن ربوبيته شيء من خلقه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والرب هو المَعبود، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

الشـــرح

فِي هاتين الآيتين أدلة أخرىٰ أقَامَها الله تَعَالَىٰ عَلَىٰ استحقاقه العبادة، فلنستعرض هذه الأدلة.

لكن قبل ذكر الأدلة ننبه إلَىٰ مَعنَىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يقول المُفَسِّرون: هذا أول أمر جَاءَ فِي القرآن.

وأقول: لفظ: «الناس» دليل عَلَىٰ عُمُوم رسالة مُحَمَّدﷺ؛ لأنه مُعَرَّفٌ بـ «أل» لغير العهد، وهذه الصيغة من صيغ العموم، كَمَا هو مُقَرَّر فِي علم الأصول.

وثَمَّة سؤال، هل يدخل الجن فِي عُمُوم هذه الآية -أعنِي: النَّاس-، وما دل عليه من عُمُوم رسالة مُحَمَّدﷺ؟

فَالجَوَاب: الجِن داخلون فِي عُمُوم هذه الآية من جهتين: أحدهُمَا لغوية، والآخر نصي شرعي.

أمَّا اللغوي: فلأن لفظ الناس مَأخُوذ من «النَّوس أو النَّوس»، وهو كثرة الحَركة، ومنه قول العامة: مكان ينوس. أي: تكثر فيه الحَرَكَة.

وأمَّا الشرعي: فلِما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه فِي سَبَب نزول قوله تعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]

الآية. قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجنيون...»[1] الحَديث.

بقي بعد هذا استخراج الأدلة الَّتِي أقامها الله عَلَىٰ استحقاقه العبادة فِي هاتين الآيتين، فالله دَعَا الخَلق إِلَىٰ عبادته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ثُمَّ بيَّنَ ما يَدُل عَلَىٰ استحقاقه للعبادة، وكانت هذه الأدلة مِمَّا يقر به المُشركون، ولا ينازعون فيه؛ لأَنَّهُم مقرون بتوحيد الربوبيَّة.

*** فَإِلَىٰ استنباط تلكم الأدلة:**

الأول: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ خَلقَكُم، وخَلَقَ مَن قبلكم، ولا يُنَازع أحَدٌ من قريش، ولا مِمَّن حَولَهُم فِي الإقرار بِهَذا الدليل.

الثانِي: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ جَعَلَ الأرض فراشًا مَفرُوشَة، ومع فرشها مُسَخَّرَة مُسَهَّلَة مُذَلَّلَة، ومع فرشها ينال الناس منافعهم ومعايشهم، فمنها ما هو ظاهر ومنها ما يستخرج.

الثالث: بناء السماء: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾.

والرابع: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ إنزال المَاء من السَّمَاء، يشرب الناس من هذا المَاء، ويسقون أنعامهم وزُرُوعَهُم.

الخَامس: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ إخراج الثَّمَرَات بذلكم المَاء

---

(١) البخاري كتاب التفسير، باب: أولئك الذين يدعون يبتغون إِلَىٰ ربِّهم الوسيلة، رقم الحَديث (٤٧١٥)، ومسلم كتاب التفسير، باب: أولئك الذين يدعون يبتغون إِلَىٰ ربِّهم الوسيلة، برقم (٧٤٧٠).

النازل من السَّمَاء.

فهذه خَمسَة أدلة جاءت فِي الآية عَلَىٰ وُجُوب عبادة الله وحده دون سواه، بقي فِي الآية أمران آخران:

أحدهُمَا: قوله تعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **فما مَعنَىٰ ذلك؟**

أي: لتتقوا، فـ «لعل» هنا للتعليل.

والتقوىٰ فِي اللغة: من الوقاية، وهي الحَذَر من المَكرُوه.

واصطلاحًا: فعل طاعة الله عَلَىٰ نور من الله؛ طلبًا لثوابه وترك معصية الله عَلَىٰ نور من الله؛ خوفًا من عقابه(١).

والتقوىٰ هذه الَّتِي أمَرَ الله بِهَا، وهي فِي الحَقيقة عبادته وطاعته، وفعل أوامره، واجتناب نواهيه فِي العبادة والمُعَاملة والسلوك، ولَهَا ثلاث مراتب وهي:

- فعل المَأمُورَات.
- ترك المَنهيَّات.
- اجتناب المُتَشَابِهَات أو الشبهات.

وثانِي الأمرين: قوله -جَلَّ وعلا-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ بدأ الآيتين بالأمر بعبادته، وخَتَمَهُمَا بالنهي عن الشرك به: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شركاء، فالند هو النظير والمَثيل.

---

(١) قَالَ طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: التقوىٰ: أن تعمل بطاعة الله عَلَىٰ نور من الله؛ ترجو رحمَة الله، وأن تترك معصية الله عَلَىٰ نور من الله؛ تَخَاف عذاب الله. انظر: مَجمُوع الفتاوىٰ (٧/ ١٦٣).

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه أمدكم بِهَذه النِّعَم، ولا شريك له فيها، فأخلصوا له العبادة؛ لأن الأمر بالعبادة مُطلقًا لا يكفي، فلو قال رَسُول الله ﷺ: اعبدوا الله. ما نازعه القوم، يقولون: لا بأس، نعبد الله.

لكن قاصمة الظهر والمُفَرِّقة: اعبدوا الله وحده، أو اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. وهذا ما لا يريده القوم؛ لتمكن الآلِهَة من قلوبِهم خَلفًا عن سَلَف، فكانت النِّزَاعَات والخُصُومة بل والمُفَاصلة والقتل والقتال.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ ابن كثير -رَحِمَه الله تعَالَىٰ-: الخَالق لِهَذه الأشياء هو المُستَحق للعبادة.

الشرح

وهذا الكلام واضح بيِّن، وليس عليه مزيد، ولا يَحتَاج إِلَىٰ تعليق.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وأنواع العبادة الَّتِي أمر الله بِهَا مثل الإسلام، والإيمَان، والإحسان؛ ومنه الدعاء، والخَوف، والرَّجَاء، والتَّوَكل، والرَّغبَة، والرَّهبَة، والخُشُوع، والخَشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة الَّتِي أمر الله بِهَا كلها لله تعَالَىٰ، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

الشـــرح

المَسَاجد: جَمع مسجد، وهو موضع الصَّلاة ومَكَانُهَا، وسُمِّي مَسجدًا من السجود، والسجود أشرف أنواع الصَّلاة، وسواء كان المَكَان بناء أو أرض فضاء، ما دامت الصَّلاة تقام فيه فهو مسجد.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: نَهيٌ عن دُعَاء غير الله ﷻ وهذه صيغة عموم: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة فِي سياق النهي، وهي إحدىٰ صيغ العُمُوم، والمَعنَىٰ: فإنه لا حق لأحد فِي الدعاء مع الله أو دونه، وسَوَاء كان المَدعو نبيًّا، أو مَلكًا، أو رَجُلا صَالِحًا، أو إنسيًّا، أو جِنيًّا، أو أي شيء.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَمَن صَرَفَ منها شيئًا لغير الله؛ فهو مشرك كافر.

الشرح

فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة، سَوَاء فِي ذلك ما ذكره الشيخ، وما ثبت أنه عبادة مِمَّا لَم يذكره، فالعبادة يَجب أن تكون خَالصَة لله تعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾** [المؤمنون:١١٧].

الشرح

سَمَّىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَن دَعَا معه غيره كَافرًا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾: هل هناك إله عليه برهان مع الله؟!

قال أهل العلم: هَذَا إخبار عن الواقع، الواقع: أَنَّ كُلَّ مَعبُود مع الله عَزَّ وَجَلَّ أو دونه لا برهان يدل عَلَىٰ أحقيته العبادة، وإِنَّمَا هذا إخبار بالواقع.

٭٭٭

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفِي الحَديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

الشرح

هَذَا ضعيف، فِي إسناده ابن لَهِيعَة[1].

والصَّحيح قوله: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»[2].

❊❊❊

(١) قال الحَافظ ابن حَجَر فِي تقريب التهذيب (٣٥٦٣): «خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المُبَارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهِمَا».
والحَديث أخرجه الترمذي كتاب الدَّعَوَات، باب: فضل الدعاء، برقم (٣٣٧١)، والطبرانِي فِي الأوسط (٣/ ٢٩٣)، برقم (٣١٩٦)، من طريق عبد الله بن لَهيعَة، عن عبيد الله ابن أبِي جعفر، عن أبان بن صَالِح، عن أنس بن مالك ﷺ، وضَعَّفَه الألبانِي فِي ضعيف الجَامع الصغير (٣٠٠٣).

(٢) أخرجه أحمَد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود كتاب الصَّلاة، باب: الدعاء، برقم (١٤٧٩)، والترمذي كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة البقرة، برقم (٢٩٦٩)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع (٣٤٠٧).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

الشـــرح

* **فِي هذه الآية:**

أولًا: حَثُّ العباد عَلَىٰ الدُّعَاء.

ثانيًا: وَعَدَهُم عَلَىٰ الدُّعَاء بالإجابة.

ثالثًا: تسمية الدعاء عبادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. سَمَّىٰ الدعاء عبادة، وقد مَضَىٰ الحَديث: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**».

رابعًا: يبقىٰ من أين يُستَفَاد النهي عن دعاء غير الله؟

يُستَفَادُ النهي من الوعيد؛ فَإِنَّ الوعيد عَلَىٰ الفعل صيغة من صيغ النهي الفرعيَّة، كَمَا هو مُقَرَّر فِي الأصول، والنهي هنا للتَّحريم قَولًا واحدًا عند أهل الحَقِّ، ولا صارف له أبدًا.

* **بقي فِي الدعاء أمور لابد من التنبيه إليها:**

أولُهَا: أنَّ الدعاء نوعان هُمَا: دعاء عبادة، ودعاء مسألة:

فدعاء المَسألة: هو سؤال العبد ربَّه جلب الخَير ودفع الشر، ومن أمثلة دعاء المَسألة المَأثور: مَا رَوَاه البخاري عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ عِندَ الكَربِ: **لاَ إِلَهَ إِلَّا الله العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا الله رَبُّ العَرشِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا الله**

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرضِ رَبُّ العَرِشِ الكَرِيمِ»[١].

وقوله ﷺ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكرَامِ»[٢].

والدعاء يَجب أن يكون باسم من أسمَاء الله، أوصفة من صفاته، فمن الأسمَاء الحَديث السَّابق، ومن الصِّفَات: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ». «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ». «أَسأَلُكَ اللَّهُمَّ بِرَحمَتِكَ الَّتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ». ودعاء الاستخارة المَعرُوف[٣].

* **والتوسل -وهو فِي الحَقيقة من دعاء المَسألة- وله ثلاثة أقسام:**

أولًا: التَّوَسل إلَىٰ الله بأسمَائه أو صفاته.

ثانيًا: التَّوَسل إلَىٰ الله بصَالِح الأعمال، فإذا وقع المُسلم فِي كُربَة، أو ضاقت به

(١) البخاري كتاب الدَّعَوَات، باب: الدعاء عند الكرب، برقم (٦٣٤٦).

(٢) أحمَد (٤/ ١٧٧)، والترمذي كتاب الدَّعَوَات، برقم (٣٥٢٤)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع (١٢٥٠).

(٣) هذه إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري فِي كتاب الدَّعَوَات، باب: الدعاء في الاستخارة، برقم (٦٣٨٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فِي الأمور كلها كالسورة من القرآن يقول: **إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثُمَّ يقول: اللهم إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لِي فِي دينِي ومَعَاشي وعاقبة أمري -أو قال: فِي عاجل أمري وآجله- فاقدره لِي، وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شَرٌّ لِي فِي دينِي ومَعَاشي وعاقبة أمري -أو قال: فِي عاجل أمري وآجله- فاصرفه عنِّي، واصرفنِي عنه، واقدر لِي الخَير حيث كَانَ، ثُمَّ رضنِي به. قَالَ: ويُسَمِّي حاجته**».

ضائقة، أو أصابته شده، ويعرف له أعمالًا صَالِحَة؛ لَجَأ إلَىٰ الله داعيًا إيَّاه بتلكم الأعمال، كقوله: اللهم إنِّي فعلت فِي يوم كذا من الأعمال كذا، فإن كان خَالصًا لوجهك؛ فَفَرِّج عنِّي هذه الكربة.

وهذا النوع من التَّوَسل دليله: حديث الثلاثة أصحاب الغار[١] وهو معروف، فإنَّهُم قالوا: إنه لا ينجيكم مِمَّا أنتم فيه إلَّا أن تدعوا الله بصَالِح أعمالكم، فَكُلٌّ دَعَا الله وتوسل إليه بعمله الصَّالِح.

ثالثًا: التوسل إلَىٰ الله بدعاء الصَّالِحين، وهذا الصَّالِح يَجب أن يَكُونَ حيًّا، قادرًا عَلَىٰ الدعاء وإمكان الاتصال به، إما مشافهة شخصية، ومن المُشافهة ما مَنَّ الله به هذه الأيام: الهَاتف، يُمكن أن تتصل بإنسان عرفت عنه حسن الاستقامة والتقوىٰ والصلاح تُهَاتفه قائلًا: يا فلان، أخوك فِي الله فلان يريد أن تدعو له، وَقَعَ فِي كذا، وَقَعَ فِي شدَّة، واقع فِي كربة، لا يلزم لك أن تصرح له وتفصح له عن كربتك.

* **النوع الثانِي: هو دعاء العبادة، ويتضمن أمرين:**

- **أحدهُمَا**: التقرب إلَىٰ الله بالمَسألة، يسأل المُسلم ربَّه ما أحب من خَيرَي الدنيا والآخرة؛ مُتَقربًا بذلك إلَىٰ الله.

الثانِي: التقرب إلَىٰ الله بِمَا شرعه من الأذكار: من تسبيح، وتَهليل، وتكبير،

---

(١) إشارة إلَىٰ ما أخرجه البخاري كتاب البيوع، باب: إذا اشترىٰ شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، برقم (٢٢١٥)، ومسلم كتاب التوبة، باب: قصَّة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصَالِح الأعمال، رقم (٦٨٨٤)، عن ابن عمر ﭬ مَرفُوعًا، وفيه: «**فَقَالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: ادعُوا الله بِأَفضَل عَمَلٍ عَمَلتمُوهُ** -قَالَ فِي آخر الحَديث-: **فكشف عنهم**».

وتَحميد مِمَّا ليس فيه مسألة مثل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك، له المُلك، وله الحَمد، وهو عَلَىٰ كل شيء قدير».

* **وثانِي الأمور**: ليعلم المُسلم أنه إذا دَعَا الله ﷻ نال إحدىٰ ثلاث:

- تعجيل مَا دَعَا به فِي الدنيا.
- أو ادِّخَار ذلك له فِي الآخرة.
- أو أن يصرف عنه من السوء مثل ما دَعَا به.

* **الأمر الثالث**: ليعلم كل مسلم ومسلمة أنَّ الإجابة لَهَا شروط، منها:

أولًا: إخلاص الدعاء لله ﷻ.

ثانيًا: اليقين بالإجابة.

ثالثًا: ألَّا يكون فِي الدعاء إثم أو قطيعة رحم، كقول القائل وهو يَدعُو عَلَىٰ قريب له: اللَّهُمَّ لا تقرب بينِي وبينه أبدًا. فهذا سؤال للقطيعة.

والإثم كقول القائل: اللَّهُمَّ ابتله بالفاحشة فِي أهله. عياذًا بالله من ذلك، هذا إثم عظيم، فَمَا ذنب أهله حتَّىٰ يَدعو عليهم هذا الدعاء؟!

رَابعًا: عَدَم العَجَلَة، عليه أن يدعو ويصبر، والله يُحكِم أمره، ويَحكُم ما يريد، والعَجَلَة بَيَّنَهَا النَّبِي ﷺ، كقول القائل: دعوت الله فلم يستجب لِي[(١)].

---

(١) إشارة إلَىٰ ما أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب: يُستَجَاب للعبد ما لَم يعجل، برقم (٦٣٤٠)، ومسلم فِي الذكر والدعاء والتوبة، باب: بَيَان أنه يُستَجَاب للداعي ما لَم يعجل، برقم (٦٨٦٩) من حديث أبِي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُستَجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَم يَعجَل، يَقُولُ: دَعَوتُ فَلَم يُستَجَب لِي**».

خامسًا: عَدَم الاعتداء فِي الدعاء، ومن ذلك قول القائل: اللهم إنِّي أسألك مَنزلة فِي الجَنة، لا يبلغها أحَدٌ من خلقك. يريد بدعائه أن يكون أعلىٰ مَنزلة من النبيين والمُرسلين؟! والنَّبِي ﷺ قد نَهَىٰ عن الاعتداء فِي الدعاء(١).

السَّادس: طيب المَتَاع من مَأكل، ومَشرب، ومَلبس، ومَسكن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلىٰ السماء، يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنىٰ يستجاب لذلك»(٢).

هذه بعض شروط إجابة الدعاء، وكَمَا أنَّ للدعاء شُرُوطًا؛ فَإنَّ له آدابًا:

منها:

* استشعارك بالذل والخُضُوع لله عز وجل، والحَاجَة إليه.

* رفع اليدين.

* استقبال القبلة.

---

(١) إشارة إلَىٰ ما أخرجه أحمَد (١/ ١٧٢)، وأبو داود كتاب الصَّلاة، باب: الدعاء، برقم (١٤٨٠)، وغيرهُمَا عن سعد بن أبِي وقاص رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «سَيَكُونُ قَومٌ يَعتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ». وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع (٣٦٧١).

(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

وكذلك للدعاء أوقات أخبر النَّبِي ﷺ أنَّهَا من سَاعَات الاستجابة:

منها:

١- بين الأذان والإقامة[١].

٢- السفر[٢].

٣- وعند نزول المَطَر[٣].

٤- وفِي السُّجُود[٤].

(١) إشارة إلَىٰ ما أخرجه أبو داود كتاب الصَّلاة، باب: ما جاء فِي الدعاء بين الأذان والإقامة، برقم (٥٢١)، عن أنس بن مالك قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لاَ يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَينَ الأذَانِ وَالإِقَامَةِ»**.
وصَحَّحَه الألبانِي فِي الإرواء برقم (٢٤٤).

(٢) إشارة إلَىٰ ما أخرجه أبو داود كتاب الصَّلاة، باب: الدعاء بظهر الغيب، برقم (١٥٣٦)، والترمذي كتاب البر والصلة، باب: دعوة الوالدين، برقم (١٩٠٥)، من حديث أبِي هُرَيرَة: أنَّ النَّبِي ﷺ قال: **«ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُستَجَابَاتٍ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعوَةُ الوَالِدِ وَدَعوَةُ المُسَافِرِ وَدَعوَةُ المَظلُومِ»**. وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع (٣٠٣٠).

(٣) إشارة إلَىٰ ما أخرجه الشافعي فِي الأم (١/ ٤٢٠) من طريق عبد العزيز بن عمر، عن مكحول مَرفوعًا: **«اطلُبُوا إِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِندَ التِقَاءِ الجُيُوشِ، وَإِقَامَةِ الصَّلاَةِ، وَنُزُولِ الغَيثِ»**. حَسَّنه الألبانِي، وذكر أنَّ له شَاهدًا من حديث سهل، وابن عُمَر، وأبِي أمامة، انظر: الصحيحة حديث رقم (١٤٦٩).

(٤) لِحَديث: **«وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَن يُستَجَابَ لَكُم»**. رَوَاهُ مسلم كتاب الصَّلاة، باب: النهي عن قراءة القرآن فِي الركوع والسجود، برقم (١٠٧٤) من حديث ابن عبَّاس ﷺ.

٥- وفِي جوف الليل[1].

೫ ❋ ❋ ❋ ೧

(١) يدل عليه ما أخرجه البخاري فِي كتاب التهجد، باب: الدعاء والصَّلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥)، ومسلم كتاب صلاة المُسَافرين، باب: الترغيب فِي الدعاء والذكر فِي آخر الليل والإجابة فيه، برقم (١٧٦٩) من حديث أبِي هريرة ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَنزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- كُلَّ لَيلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ يَقُولُ: مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيب لَهُ؟ مَن يَسأَلُنِي فَأُعطِيَهُ، مَن يَستَغفِرنِي فَأَغفِر لَهُ»**.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الخَوف قوله تعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

الشــرح

الخَوف: هو شدة الخَشية والحَذَر، وهذه الآية نزلت بعد أُحُد، كَمَا قَالَ غير واحد من المُفَسِّرين، حينما قال قائل: إنَّ قُرَيشًا يَعُدُّونَ لكم العُدَّة لتستأصل شأفتكم، فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يُخَوفكم أولياؤه.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. أخبر ﷻ أن مَخَافته وحده شرطٌ فِي الإيمَان.

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومَعنَىٰ ذلك: أنكم إذا لَم تَخَافوني؛ فلستم بِمُؤمنين.

*** والخَوف ثلاثة أنواع:**

- **الأول**: خوف السر، وهو خوف الإنسان من وثن أو جنِّي أن يصيبه بِمَكرُوه، وكذا خوفهم من الأوثان والمَعبُودَات من أصنام وجن أن تصيبه بِمَكرُوه؛ هَذَا شرك أكبر؛ لأنه عَلَّقَ قلبه بغير الله ﷻ وهدم أحد مَقَامَات العبادة.

- **الثانِي**: تركه الواجبات خوفًا من الناس، ولا يدخل فِي هذا درء المَفسَدة أو فرض الكفاية الذي إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الآخرين، ولكن واجب يتعين عليه فيتركه ويتنصل منه، وفرق بين أن يتركه وبين أن يرجئه، فهذا النوع ينافِي كمال التوحيد.

- **الثالث**: الخَوف الطبيعي، وهو الذي جُبل عليه الناس أو جُمهُور الناس،

وهو خوف الإنسان من عدو مُحَقق، ويتخوف من سلوك طريق مُعين إمَّا للصوص؛ أو لأنه مَهجُور يَخشَىٰ أن تنقطع سيارته وتتعطل، فيقول: لا أسلكه هذا مَخُوف، لو تعطلت سيارته يغلب عَلَىٰ ظنه أنه لا يسعفه أحد، هذا من اتخاذ الأسباب.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الرَّجَاء قوله تعالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الشرح

الرَّجَاء: أحد مَقَامَات العبادة، وهو أمل الإنسان فِي رَحمَة الله عَزَّ وَجَلَّ وعفوه، والجَمع بين الخَوف الرَّجَاء مُتَحَتم عَلَىٰ العبد، يَجب أن يَجمع بين الخَوف والرَّجاء، أن يَخَاف من الله ويرجوه؛ لأنَّ الرَّجَاء يُطمِع فِي رَحمَة الله، والخَوف يَردع عن مَغَاضب الله؛ ولِهَذَا قال بعض أهل العلم: الخَوف والرَّجَاء جناحان للعبد.

الآية الكَريمَة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يؤمل لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ ويطمع، فإن هذا الطمع لا يكفي، بل: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إذن فِي الآية دليل عَلَىٰ وُجُوب العَمَل الصَّالِح.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ونعنِي بالعَمَل الصَّالِح: كل مَا يُقَرِّب إلَىٰ الله فرضًا كَانَ أو مَندُوبًا ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ دليل الاستعداد للقاء الله عَزَّ وَجَلَّ عمَلُ الصَّالِحَات الخَالصَة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وسَوَاء كان الشرك أكبر، وهذا مُخرج من المِلة، أو أصغر وهذا يُنَافِي كمال التوحيد.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **ودليل التوكل قوله تعالَىٰ:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

الشرح

التوكل لغة: التفويض، وَكَّلَهُ إذا فَوَّضَهُ، وكلت فلانًا، أي: فوضته فِي الأمر.

والوكالة هي: جعل الإنسان نائبًا مُفَوضًا عنه فيما يَخصه.

واصطلاحًا: اعتماد القلب عَلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي جلب النَّفع ودفع الضر، والتوكل لا يُنَافِي الأسباب المَشرُوعَة، بل يتفق معها، وقد ثبت صحة الأخذ بالأسباب مَعَ التَّوكل، ومن ذلكم أنَّ رسول الله ﷺ وهو سيِّد المُتَوكلين كان يتَّخذ الأسباب مع توكله عَلَىٰ الله.

ومن فعله ﷺ الأسباب: أنه إذا أراد غَزوَة وَرَّىٰ بغيرها(١) مع إعداد العُدَّة الكافية لَهَا، **لِمَاذا يُوَرِّي بغيرها؟** هذا من الأسباب المَشرُوعَة حتَّىٰ لا يعلم المُغزون من الكفَّار.

ولَمَّا كان يوم الفتح جَهَّزَ عشرة آلاف بكامل عُدَّتِهم وعتادهم، وكان ﷺ يعزل مِمَّا أفاء الله عليه(٢) نَفَقَة أهله السنَّة والسَّنتين، وقد أمَرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العباد بالسَّعي

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الجِهَاد، باب: المَكر فِي الحَرب، برقم (٢٦٣٧) عن كعب بن مالك، عن أبيه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزوَةً وَرَّىٰ غيرهَا». وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع برقم (٤٦٦٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب: قول الله تعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. برقم (٤٨٨٥)، ومسلم كتاب الجِهَاد، باب: حُكم الفيء، برقم (٤٥٥٠) من حديث عُمَر رضي الله عنه.

بطلب الكسب فِي آيات كثيرة من كتابه، منها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

وقال ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكَّلُون علَىٰ الله حَقَّ توكُّلِه لرَزَقَكم كمَا يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[١]. والمَعرُوف عند العُقَلاء أنَّ الطيور لا تَمكث فِي أوكارها أو أعشاشها، بل تَخرج منها فِي الصَّباح جَائعَة تضرب يَمينًا وشِمَالًا تفتش عن قُوتِهَا، وتعود وقد ملأت حواصلها، فَهَذَا حَثٌّ منه ﷺ عَلَىٰ السعي فِي طلب الرزق؛ لأنه ضرب مَثَلًا فِي الطير، وقد عرفنا حالتها قبل قليل.

الآية الكَريمَة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. هذه الآية جاءت فِي آخر الحِوَار الذي قَصَّهُ الله ﷻ عن مُوسَىٰ وقومه: ماذا قَالَ لَهُم مُوسَىٰ؟

قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١]. فقال القوم له: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ آخر ما قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ والمَعنَىٰ: لا يُمكن أن نذهب، وكيف تأمرنا أن ندخلها وفيها من فيها من الجَبَّارين؟! اذهب أنت وربك فقَاتلَا.

وهَذَا رَدٌّ فِي غاية الجَلافة وسوء الأدب، فَانبَرَىٰ رَجُلان من المُؤمنين من العقلاء الأكياس: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. والمَعنَىٰ: خُذُوا بالسَّبَب، وادخلوا الباب عليهم كَمَا أمركم نبيك، يُقَال: إنَّ أحدهُمَا يوشع بن نون ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمَد (١/ ٣٠)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي السِّلسلة الصَّحيحة برقم (٣١٠).

انظروا إِلَىٰ العقل، قال: ادخلوا كَمَا أمركم نبيكم، وتوكلوا عَلَىٰ الله، مع ذلك افعلوا السبب -ما أمرتُم به- مع التوكل عَلَىٰ الله ﷻ .

وهذه الآية جيء بِهَا تذكيرًا لنا، ففيها بالإضافة إِلَىٰ الأمر بالتوكل، وأنه شرط فِي الإيمَان: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ التحذير من سلوك مسلك المُكَذبين مثل بنِي إسرائيل مع مُوسَىٰ، كَمَا فِي السِّياق تسلية النَّبِي ﷺ، وأنه ليس بدعًا من المُرسَلين الذين رُدَّ قولُهُم.

الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. وَعَدَ الله سبحانه وتعالى للمتوكل عليه بأنه حسبه -أي: كافيه-.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الرَّغبَة، والرَّهبَة، والخُشُوع قوله تعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

الشرح

الرَّغبَة والرَّهبَة مُتَقَابلان.

فالرَّغبَة: الطمع والضراعة.

والرَّهبَة: الخَوف.

والخُشُوع: هو الخُضوع لله عَزَّوَجَلَّ .

هذه الآية مِمَّا أثنَىٰ به الله عَلَىٰ خَاصَّته، وهم الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، وَصَفَهُم الله عَزَّوَجَلَّ فِي هذه الآية بعدَّة صفات تأمَّلوهَا:

أولًا: المُسَارَعَة فِي الخَيرات.

والثانية: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يَجمَعُون بين الرَّغبَة والرَّهبَة، وهكذا كلما عَظُم الإيمَان فِي قلب العبد عَظم فِي قلبه الرَّغبَة والرَّهبَة؛ ولِهَذَا قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

والصِّفَة الأخيرة: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾.

هذه صفات أولياء الله، وفِي ذكر صفة الأولياء أمرٌ بالتَّأسِّي بِهم، كما أن فِي ذكر صفات الفُجَّار والعُصَاة تَحذير ونَهي عن التشبه بهم وهذا من الأساليب البديعة، ذكر الصِّفَات الحَميدَة فيه أمر بفعلها والتَّأسِّي بأهلها، وذكر الصِّفَات القبيحة فيها نَهي عن فعلها والتحذير من أهلها.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الخَشية قوله تعالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

الشـــرح

الخَشيَة -كَمَا قَال بعض أهل العلم-: خَوفٌ يصحبه تعظيم.

وهذه الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ قبلها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠]. الناس -منهم اليهود الذين أرجفوا- لَمَّا صُرِف النَّبي ﷺ إلَىٰ الكعبة للصَّلاة حُوِّل من بيت المَقدس قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[1].

هذا إرجاف حتَّىٰ تَمرض القلوب الضعيفة من المُنَافقين، فَحَذَّرَ الله ﷻ نبيَّه ﷺ والمُؤمنين بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ ولوا وجوهكم شطر المَسجد الحَرَام حيثما كنتم؛ لأنَّ هذه أوامر الله، وأوامر الله لا يُخشىٰ فيها لومة لائم أبدًا، يفعل الإنسان ما أمره الله به.

❊❊❊

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٨).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودليل الإنابة قوله تعالَىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤].

الشـــرح

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ أقبلوا عليه بالطَّاعَات، ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ فالإنابة إذا أُفردت فهي بِمَعنَىٰ الإسلام وبِمَعنَىٰ الإيمَان، لكن إذا قُرنَت بالإسلام؛ كانت الإنابة بالقلب، والإسلام بالجَوَارح بالأعمال الظاهرة، مثل الإيمَان والإسلام إذا جُمع بينهما؛ انصرف الإيمَان إلَىٰ الاعتقاد -أعمال القلوب-، والإسلام إلَىٰ أعمال الجَوَارح، وإذا انفرد كل واحدٍ منهما شَمل الآخر، وسوف يَأتِي لِهَذا بيَان فِي مَحله -إن شاء الله تعَالَىٰ-.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: ودليل الاستعانة قوله تعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. **وفِي الحَديث: «إِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بِاللهِ».**

الشــرح

* **الاستعانة:** طلب العون، وهي قسمان:

- طلب العون فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، وهَذَا خَالص حقه ﷻ، وصرفه لغير الله شرك أكبر مُخرج عن المِلَّة.

- **والثانِي:** طلب العون من المَخلوق فيما يقدر عليه المَخلوق، وشروط هذا:

أولًا: أن يكون المَخلوق قَادرًا؛ لأنك لو استعنت بغير قادر، وأنت تعلم من حاله ذلك؛ فإنك أحرجته، وكلفته ما لا يطيق، وهذا لا يَجُوز.

الثانِي: أن يكون حيًّا.

الثالث: أن يكون حَاضرًا، وقد يُستَعَان بالغائب فِي أحوال مُعيَّنة، قد يتصل بغائب، أو يكاتب فيطلب منه الإعانة بِمَاله أو بِجَاهه.

وفِي الآية أمر بالعبادة وبالاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وسر ذلك **قَالَ بعض أهل العلم:** لأنه لا يُمكن أداء العبادة علىٰ وجهها الصَّحيح دون الاستعانة بالله تَعَالَىٰ.

❁ ❁ ❁

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودليل الاستعاذة قوله تعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ [الفلق:١]. و: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١].

الشرح

هاتان الآيتان الكَريمَتان: أولاهُمَا بَدءُ سورة الفلق، وثانيهما بدء سورة الناس، والشاهد منها: فِي الاستعاذة بالرَّبِّ، وهو ﷻ رب الناس.

والاستعاذة: هي طلب العَوذ والالتجاء إلَىٰ الله ﷻ هربًا من المَكرُوهَات، وهاتان السورتان كَمَا تعلمون هُمَا سورة «الناس» و«الفلق»، وقد تضمنت سورة الناس خَاصَّة أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبيَّة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.

وتوحيد الألوهيَّة: ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾.

وتوحيد الأسمَاء والصِّفَات: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾.

فعلماؤنا وأئمَّتنا حين قَرَّرُوا أنواع التوحيد الثلاثة لَم يُقروها اعتباطًا من أنفسهم، بل باستقراء الكتاب والسنَّة، ومن أقدم المُتكَلمين بتقسيم التوحيد أبو يوسف[١] صاحب أبِي حَنيفة -رَحِمَ الله الجَميع-.

❊ ❊ ❊

(١) كلام أبِي يُوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «كتاب التوحيد ومعرفة أسمَاء الله ﷻ» (٣/ ٣٠٤)، تَحقيق الشيخ الفاضل: علي بن مُحَمَّد بن ناصر الفقيهي -حفظه الله-.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الاستغاثة قوله تعالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

الشرح

الاستغاثة: طلب الغَوث، وهو الدعاء حال الشِّدَّة، ويُفَرَّق بين الاستغاثة والدعاء، فالدعاء أعَمُّ حيث يكون فِي الشِّدَّة والرَّخَاء، أمَّا الاستغاثة فلا تكون إلَّا فِي الشِّدَّة.

والاستغاثة بالله جَلَّ خالص حقه تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ هذه الآية ضمن ما أخبر الله تَعَالَىٰ به عن أهل بدر، فذكر أنَّ من نعمته عليهم أنه أجَابَهُم حين استغاثوه حين كَانَ رَسُول الله ﷺ يستغيث بالله[1]، فإنه استجاب له جَلَّ، وأمَدَّهُ بالمَلائكة، ونَصَره علىٰ المُشركين مَعَ قلة عدد المُسلمين وعدَّتِهم،

(١) أخرج البخاري : كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ برقم (٤٨٧٥)، ومسلم كتاب الجِهَاد، باب: الإمداد بالمَلائكة فِي غزوة بدر وإباحة الغنائم (٤٥٦٣)، واللفظ له، من حديث عمر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ يوم بدر: «لَمَّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلَىٰ المُشركين وهم ألف، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رَجُلًا، فاستقبل نبِي الله ﷺ القبلة، ثُمَّ مَدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: **اللَّهُمَّ أَنجِز لِي مَا وَعَدتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدتَنِي، اللَّهُمَّ إِن تُهلِكَ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنَ أَهلِ الإِسلاَمِ لاَ تُعبَد فِي الأَرضِ.** فما زال يهتف بربِّه مَادًّا يديه، مستقبل القبلة حتَّىٰ سَقَطَ رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه علىٰ منكبيه، ثُمَّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبِي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله جَلَّ : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمَدَّهُ الله بالمَلائكة».

وكثرة عَدَد المُشركين وعدَّتِهم.

والسؤال: هل يُستَغَاث بالمَخلوق؟

الجواب: مَضَىٰ تفصيل ذلك في الاستعانة.

﴾ ❋ ❋ ❋ ﴿

قال المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودليل الذبح قوله تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. ومن السنَّة: «لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لِغَيرِ الله».

الشـــرح

الآية فيها الأمر بالإخلاص فِي عدَّة أشياء: أُمِرَ النَّبِي ﷺ والأمَّة تبع له بالإخلاص لله فيما تضمنته الآية:

الأول: الصَّلاة، وسَوَاء كانت الصَّلاة نافلةً أو فريضة، ودليل شُمُول النوافل العُمُوم، وهو قوله تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾.

والثانِي: ﴿وَنُسُكِي﴾ وهو الشاهد من الآية، والنسك الذَّبيحَة كَالهَدي والأضحية.

والثالث: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ ما أحيا عليه من أحوال.

﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أموت عليه.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ هذه أربعة أشياء تضمنتها الآية، وتضمنت الأمر فيها بالإخلاص لله ﷻ؛ لأنه مَحض حقه.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرت بِهَذه الأوامر.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو إمام المُسلمينﷺ من أمَّته وغيرهم.

قَالَ الشَّيخ: ومن السنَّة: «لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لِغَيرِ الله».

الحَديث فِي صحيح مسلم عن عليٍّ ﷺ قَالَ: «حَدَّثنَا رَسُولُ الله ﷺ بِأَربَعِ

كَلِمَاتٍ: **لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لِغَيرِ الله، لَعَنَ الله مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، لَعَنَ الله مَن آوَىٰ مُحدثًا، لَعَنَ الله مَن غَيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ**»[١].

واللعن من الله: طرد المَلعون، وإبعاده عن الرحمة.

ومن المَخلوق: طلب الطرد والإبعاد من رَحمَة الله.

مَحل الشاهد: هُوَ مَا اقتَصَر عليه المُؤلف: «**لَعَنَ الله مَن ذَبَحَ لِغَيرِ الله**». ولابد من بَيَان أمور فِي الذَّبح يَجب التنبه إليها ووعيها؛ لأنَّ كثيرًا من الناس يقول: أنا ذَبَحت كذا، هذا لغير الله، وذلك خلط عجيب لقلة الفقه.

* **فليعلم أنَّ الذبح قسمان:** ذبح عَادَة، وذبح عبادة:

- **الأول:** ذبح عادة ليس فيه أجر ولا وزر، هذا الأصل، الأصل فيه عَدَم الأجر، وعدم الوزر والإثم، ومن ذبح العادة ذبح الذبائح للبيوت أو لاجتمَاعَاتِهم الخَاصَّة.

مثال ذلك: تَخرج مَجمُوعَة أناس أو عوائل إِلَىٰ مكان، ويذبَحُون ما تَيَسَّرَ لَهُم ذبيحة أو ذبيحتين أو أكثر أو أقل، هذا فِي الأصل ليس فيه أجر ولا وزر ما لَم تدخله نيَّة، فإن الوزر والأجر مترتبان علىٰ النيَّة، فإن دخلته نيَّة طيبة كإعفاف الرَّجُل بِهَذه الذبائح أولاده وآل بيته فله أجر، وإن دخلته نيَّة سيئة كالفخر والخُيلاء وكسر نفوس الفقراء كَان عليه وزر؛ إذن فليس فِي ذبح العادة أجر ولا وزر لذاته.

- **الثانِي:** ذبح العبادة، وهَذَا ثلاثة أقسام: شرعي، وبدعي، وشركي.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الأضاحي، باب: تَحريم الذَّبح لغير الله تعَالَىٰ ولعن فاعله، برقم (٥٠٩٧)، من حديث علي ﷺ.

فالشَّرعي: ما شرعه الله ﷻ ؛ إمَّا وُجُوبًا كالهَدي والأضحية علىٰ قول -هو الذي نرجحه-، والمَندُوب كالذي يُذبَح صَدَقَة عن موتاه أو عن نفسه.

الثانِي: -**مِن ذَبحِ العبادة**- **هو البدعي**: كالذي يذبح عند قبرٍ لله مُعتَقدًا أنَّ لَهَا مزيد فضل عند هَذَا القبر، فهو لَم يقصد صاحب القبر بذبيحته؛ ولذا كانت ذبيحته من البدعة لِمَا تقدم؛ فسميت بدعة لأنه عَبَدَ الله فِي مكان لَم يشرع الله فيه العبادة.

الثالث: -**هو الشركي**-: وهو الذبح لغير الله كَالجِنِّ والقبور والأصنام؛ يذبح تقربًا إلَىٰ هؤلاء؛ طلبًا منهم رفع الدرجات، أو خوفًا من شَرِّهم، هذا هو الشِّركي الذي ينقل من ملة الإسلام إلَىٰ ملة الكفر، والذي كانت عليه قريش والمُشركون، ولعله بِهَذَا التفصيل اتَّضَحَ الفرق بين الذبائح.

❁❁❁

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودليل النذر قوله تعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان:٧].

الشــرح

فِي النذر عدَّة مَسَائل:

الأولَىٰ: فِي تعريفه.

والثانية: فِي حُكمه.

والثالثة: فِي شروطه.

أولًا: تعريفه لغة: الإلزام.

واصطلاحًا: إلزام المُكَلَّف نفسه بعبادة لَم تَكُن واجبة عليه بأصل الشَّرع.

الثانِي حكمه: وحكمه منه ما هو شرعي، ومنه ما هو شركي.

فالشرعي: هو ما كان لله ﷻ.

والشركي: ما كان لغير الله. هذا تقسيم مبدئي.

ثُمَّ النذر الشَّرعي ينقسم إلَىٰ قسمين: منجَّز، ومعلق، فالمُنجَّز ضد المُعَلق، ويُسَمَّىٰ المُطلق لأنه لَم يقيد بشيء، ولَم يُعلق علىٰ شيء، كقول القائل: عَلَيَّ نذرٌ العمرة هذا العام، أو لله أن أعتمر هذا العام، أو أن أحج هذا العام. أو يقول: لله عَلَيَّ أن أتصدق بألف دينار. هذا هو المُنجَّز.

وأمَّا المُعلق: فهو ما عُلق علىٰ أمر يوفَّىٰ بِحُصُوله، كقول القائل: إن شفىٰ الله مريضي فعلي صيام كذا، وإن رد الله غائبِي عَلَيَّ صَدَقَة كَذَا، فهذه الأمور وأمثالُهَا

من النذر المُعلق؛ لأنه علقه علىٰ شرط، هذه تقسيمات النذر.

ذَهَبَ بعض أهل العلم إِلَىٰ أن النذر مُحَرَّم، واستدلوا بقولهﷺ: «**إِنَّ النَّذرَ لَا يَأتِي بِخَيرٍ، وَإِنَّمَا يُستَخرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ**»(١). قالوا: هذا ذم، وذم الفعل من صيغ النهي الفرعيَّة، والنهي الأصل فيه التَّحريم.

والصَّوَاب: أن النذر ليس بِمُحَرَّم، ولكن تركه أولَىٰ، ومَن نذر فعليه الوفاء، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

*** ثالثًا: شروط النذر:**

- التكليف، وهو يشمل البلوغ والعقل.
- أن يكون النذر -أي: المَنذُور به- طاعة.
- أن يكون المَنذُور به ملكًا للنَّاذر.
- القُدرَة.
- حُصُول المَنذُور عليه.

والأربعة عَامَّة فِي المُطلق والمُقيد، وأمَّا حُصُول المَنذُور عليه فهو فِي المُعلق.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب القدر، باب: إلقاء العبد النذر للقدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم كتاب الأيمَان والنذور، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم (٤٢١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه واللفظ الذي ذكره الشيخ -وَفَّقَهُ الله- هو الذي أورده النسائي فِي سُننه كتاب الأيمَان والنذور، باب: فِي اللغو والكذب، برقم (٣٨٠١)، وصَحَّحَهُ الألبانِي فِي إرواء الغليل برقم (٢٥٨٥).

* تنبيه:

مَن عَجزَ عن الوفاء بنذر الطاعة؛ وَجَبَ عليه التَّحَلل بكَفَّارة اليمين، وهي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتُهم، أو تَحرير رَقَبَة مُؤمنة، فإذا عَجزَ عن هذه كلها صَامَ ثلاثة أيام.

وأمَّا نذر المَعصية فإن الإجمَاع مُنعَقد علىٰ تَحريمه، وعَدَم الوَفَاء به، **وهل فيه كفارة؟**

قولان لأهل العلم، والصَّوَاب لُزُوم الكَفَّارَة؛ لِحَديث: «**لاَ نَذرَ فِي مَعصِيَةٍ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ**»[1].

الآية قبلها: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٥-٧].

فهل جاءت فِي معرض الثناء، أو فِي معرض الذم؟ بل هي فِي معرض الثناء والمدح، فإذن الآية دليل عَلَىٰ أنَّ النذر ليس بِمُحَرَّم، وأنَّ الوفاء بنذر الطاعة من صفات الأبرار، جعلنا الله وإيَّاكم منهم.

❀❀❀

(١) أخرجه أحمَد (٦/ ٢٤٧)، وأبو داود كتاب الأيمَان والنذور، باب: من رأىٰ عليه كفارة إن كان فِي معصية، برقم (٣٢٩١)، والترمذي كتاب النذور والأيمَان، باب: أن لا نذر فِي معصية، برقم (١٥٢٤)، والنسائي كتاب الأيمَان والنذور، باب: كَفَّارَة النذور، برقم (٣٨٣٥)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي الإرواء برقم (٢٥٩٠).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: الأصل الثانِي: معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبَرَاءَة من الشِّرك، وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمَان، والإحسان.

الشـــرح

قول الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي الإسلام فِي الأصل الثانِي أنه: «معرفة دين الإسلام بالأدلة».

الأدلة: جَمع دليل، وهي الكتاب والسنَّة والإجمَاع، وهذه الثلاثة الأصول مُتَّفَق عَلَيهَا، والقياس وقول الصَّحَابِي إذا لَم يُخَالف، هذه الأدلة الَّتِي تثبت بِهَا الأحكام الشَّرعيَّة، والدين الأصل فيه النص، فلا يعبد الله إلَّا بنص من كتابٍ أو سنَّةٍ.

قال علي بن أبِي طالب رضي الله عنه فيما يُروَىٰ عنه: «لَو كَانَ الدِّينُ بِالرَّأيِ؛ لَكَانَ بِاطِنُ الخُفِّ أَولَىٰ بِالمَسحِ مِن أَعلاهُ»[1].

وقَالَ الشَّعبِي رَحِمَهُ اللهُ: «إيَّاكُم والمُقَايسَة، فوالذي نفسي بيده؛ لئن أخَذتُم بالقياس لتحلن الحَرَام، و لتحرمن الحَلالَ، فما بلغكم عَمَّن حفظ من أصحاب مُحَمَّد ﷺ فخذوا به»[2].

وقد اتفقت كلمة الأئمَّة الأربعة وغيرهم علىٰ وُجُوب رَدِّ كُلِّ قول يُخَالف الكتاب والسنَّة؛ وهذا لِمَا تَقَرَّرَ عندهم -رَحِمَهُم الله- أنَّ الدين يَجب أن يكون من

(١) تقدم تخريجه (ص١٢).

(٢) سنن الدارمي (١/ ٦٠)، برقم (١٠٩).

الكتاب والسنَّة، والإجمَاع حُجَّةٌ بنفسه، والصَّحيح أن مُستَنَدَه النص، ولكن هذا النص قد يُعرَف، وقد لا يُعرَف.

قَالَ الشَّيخُ فِي تعريف الإسلام هو: «الاستسلام لله بالتوحيد».

التوحيد: هو أساس الدِّين وقاعدته، فدون التوحيد لا وزن لأي عبادة.

والتوحيد فِي اللغة: التفريد، بأن يُجعل الشيء واحدًا، وتوحيد الله: هو إفراده بالربوبيَّة، والألوهيَّة، والأسمَاء والصِّفَات.

قَالَ: «والانقياد له بالطاعة».

الانقياد لله، والانقياد هذا إن كَانَ ظاهرًا وباطنًا؛ فهو عَمَل المُؤمنين، وإن كان ظاهرًا فقط؛ فَهُو عَمَل المُنَافقين، ولكن الانقياد الصَّحيح هو ما يشمل الظاهر والباطن؛ صحة العمل فِي الظاهر، وإخلاصه لله فِي الباطن.

قوله: «والبراءة من الشرك» هذا هو التحقيق والصواب، وفي بعض النسخ: «والخلوص من الشرك». بدل البراءة.

قَالَ بَعضُ عُلَمَائنَا: إنَّ كلمة «الخُلوص» مُقحَمَة أو مُبدلة من بعض النسَّاخ، والصَّحيح «البَرَاءة من الشِّرك»، ولعله يُؤيِّده.

*** قول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بعض رسائله:**

«أصل الدِّين وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والتَّحريض عَلَىٰ ذلك، والمُوَالاة فيه، وتكفير من تركه.

الثانِي: النهي عن الشرك فِي عبادة الله، والتغليظ فِي ذلك، والمُعَادَاة فيه -يَعنِي:

فِي الله- وتكفير من فعله»[١].

فَهَذَا القول يَتَضَمَّن الولاء والبراء.

قَالَ الشيخ: «وهو ثلاث مراتب».

المَرَاتب: جَمع مرتبة، والمَرتبة: المَكَانة الَّتِي يستحقها الشيء.

فمراتب الدين ثلاث: الإسلام، والإيمَان، والإحسان، وهذا مُستَنبَطٌ من قوله ﷺ فِي حديث جبريل المَشهور: «**هَذَا جِبرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينكُم**»[٢]. وكانت أسئلة جبريل ﷺ لِمُحَمَّد ﷺ عن هذه الثلاث، فَعَدَّ النَّبِي ﷺ ذلك الدِّين، والقول ما قاله الله ورسوله؛ فلا دين حتَّىٰ تكتمل هذه المَرَاتب الثلاث عند العبد.

❀❀❀

(١) «الواجبات المُتحتِمَات»، جَمع عبد الله بن إبراهيم القرعاوي (ص٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، عن عمر رضي الله عنه.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وكل مرتبة لَهَا أركان، فأركان الإسلام خَمسَة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحَرام.

فدليل الشَّهَادَة قوله تعالَىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]. **ومعناها: لا مَعبُودَ بِحَقٍّ إلَّا الله وحده.**

«لا إله»: نافيًا جَميع ما يُعبَد من دون الله.

«إلَّا الله»: مثبتًا العبادة لله وحده، لا شريك له فِي عبادته، كَمَا أنه لا شريك له فِي ملكه.

الشرح

الأركان: جَمع رُكن، والركن هو الجَانب الأقوىٰ فِي البناء، فأركان الإسلام: قواعده الَّتِي يَنبَنِي كما في حديث عمر رضي الله عنه، قَالَ: قال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَىٰ خَمسٍ: شَهَادَةِ أَن لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والحج، وَصَومِ رَمَضَانَ**»[١]. فقد أخبر ﷺ أنَّ الإسلام يَنبَنِي عَلَىٰ هذه القواعد الخَمس، وسُمِّيَت أركان، ومن المَعلوم أن البيت لا يُبتنَىٰ حتَّىٰ يكتمل أركانه.

الركن الأول: الشهادتان «**شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله**».

والشهادة فِي اللغة تطلق علىٰ شيئين: الإعلام، والحُضُور.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمَان، باب: الإيمَان وقول النَّبِي ﷺ: بُنِي الإسلام علىٰ خَمس، برقم (٨)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: بيَان أركان الإسلام ودَعَائمه العظام، برقم (١١٢).

فمن الأول: قول القائل: أشهد أنَّ فلانًا فعل كذا. فما مَعنَىٰ قوله: أشهد أن فلانًا كذا؟ أُعلم وأُخبر.

ومن الثانِي: قَولُهُم: كان يشهد الصبح جَمَاعَة. مَعنَىٰ يشهد الصبح: يَحضر، وفِي التراجم يقولون: شَهِد بدرًا. -أي: حَضَرَهَا-.

وفِي الاصطلاح: إقرار المُكَلف علىٰ نفسه لله بالوحدانيَّة، ولنبيِّهﷺ بالرِّسَالة مَعَ مَا تقتضيه الشهادتان، والبداءة بالشهادتين؛ لأَنَّهُمَا أصل الأصول، فأصل الأصول الشَّهَادَة لله بالوحدانيَّة، ويكمل ذلك بالنسبة للمُكَلف الشَّهادة للنَّبِيﷺ، فالشَّهَادَة لله بالوحدانيَّة فيها ركن الإخلاص، والشهادة للنَّبِي ﷺ فيها ركن المُتَابَعَة له، وهذان رُكنَا العبادة، وإن شئت فَقُل: شروط قبول العَمَل.

شهادة «أن لا إله إلَّا الله» نبدأ أولًا بِمَعنَاهَا، ثُمَّ نتبع ذلك بالكلام عَلَىٰ الدليل.

«لا إله إلَّا الله» مَعنَاهَا اختصارًا: لا معبود بِحَقٍّ إلَّا الله.

ومن الأدلة عَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ: قولهﷺ: **«مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ الله حَرُمَ دَمُهُ وَمَالُهُ»**[1] الحَديث.

هَذَا هُوَ المَعنَىٰ الصَّحيح لشهادة «لا إله إلَّا الله»، وهو الذي مَنَعَ الكفار من قولِهَا، أمَّا تفسيرها بـ: أنه لا خالق إلَّا الله، ولا رازق إلَّا الله، فهو تفسير باطل؛ لأنه:

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمَان، باب: الأمر بقتال الناس حتَّىٰ يقولوا: لا إله إلَّا الله مُحَمَّد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، برقم (١٢٩).

أولًا: لا يَتَضَمَّن إلَّا توحيد الربوبيَّة، وذلكم مَا كَانَ المُشركون مُقرِّين به علىٰ عهد رَسُول اللهﷺ، ولَم يدخلهم فِي الإسلام.

وثانيًا: لو كان المُرَاد هَذَا ما امتنع المُشركون عن قولِهَا، ولكنهم عرفوا المُرَاد، وهو خلعهم جَميع الأوثان؛ ولِهَذَا قالوا فيما قَصَّ الله عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

ويَدُل علىٰ بطلانه:

ثالثًا: أنَّ أبا جهل وصناديد الكفر ماتوا علىٰ التوحيد، وأن قتلهم كَانَ ظُلمًا!! سبحانك هذا بُهتان عظيم.

هذا مَعنَاهَا المُختَصَر: لا معبود بِحَقٍّ إلَّا الله. وقد ذكرنا الأدلة عليه، والأدلة علىٰ بطلان ما يُخَالفه.

أمَّا معناها المَبسُوط: فإن الكلمة تتألف من ركنين، وهُمَا: النفي، والإثبات:

«**لا إله**»: نافيًا جَميع ما يُعبَد من دون الله، وهَذَا ما عقله المُشركُونَ وعرفوه، وامتنعوا من قَولِهَا لأجله.

«**إلا الله**»: مُثبتًا العبادة لله وحده، فكما أنه ﷻ لا شريك له فِي ملكه، كذلك لا شريك له فِي عبادته، فالرب ﷻ يَحتج عَلَىٰ المُشركين فِي إنكارهم الألوهيَّة بإقرارهم بالربوبيَّة، فهل يطالبهم بالربوبيَّة أم بالألوهيَّة؟

يطالبهم بالألوهيَّة، يَدعُوهُم إليها، ويأمرهم بِهَا، أما الربوبيَّة فإنَّهُم مُقرُّونَ بِهَا، وهَذَا مَا تَعَوَّدنَاه من ربِّنا فِي القرآن الكَريم: يُحَاج المُشركين علىٰ إنكارهم الألوهيَّة، ويقيم عليهم الحجة في الألوهيَّة بِمَا يعرفونه منه بالربوبيَّة، ولكن إذا

عميت القلوب واستحكمت الأهواء فلا حيلة.

يُقضىٰ عَلَىٰ المَرء فِي أيام مِحنَتِهِ ... حَتَّىٰ يَرَىٰ حَسَنًا مَا ليس بالحَسَنِ

الدليل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]. نتأمل مَضمُون هذه الآية، فيها ثلاثة شُهَدَاء علىٰ وحدانيَّة الله ﷻ وهم:

أولًا الحَق ﷻ: شَهِدَ بنفسه عَلَىٰ وحدانيته، ولا أعلم منه، ولا أصدق حديثًا منه، ولا أحسن قيلًا.

الثاني المَلائكة: فَهُم أعلم المُكَلفين بالله ﷻ، وهَذَا دليل عَلَىٰ فضلهم ومكانتهم عند ربِّهم إذ استشهدهم عَلَىٰ وحدانيته.

والثالث أهل العلم: عُلَمَاء الشَّرع، وفِي هَذَا تزكية وتعديل لعُلَمَاء الشَّرع، وأنَّهُم أفضل البشر، فلو لَم يكونوا كذلك ما استشهدهم الله علىٰ وحدانيته: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ بعد الأنبياء.

وفِي هَذَا رَدٌّ علىٰ بعض المُنتَسبِّين إلَىٰ الدَّعوَة الذين يقولون: الداعية أفضل من العَالِم. بِحُجَّة أنَّ الداعية كالسَّحَابَة يَتَنَقَّل من مكانٍ إلَىٰ مكان، وكلٌّ ينال من هذه السَّحَابَة، كُلٌّ يستقي منها، أمَا العَالِم مثل البير مثل القليب، لا يشرب منها إلَّا مَن وَرَدَهَا، سبحان الله العظيم!! أنتم أعلم أم الله؟ من استشهد الله علىٰ وحدانيته العَالِمَ أم الداعية؟ العَالِم.

مَن هُم ورثة الأنبياء؟ العُلَمَاء أم الدُّعَاة المُتَنقلون، والذين منهم مَن لا يُحسن فَاتِحَة الكتاب ولا يعرف أركان الإسلام؟! ولكن القياس الفاسد، وضرب الأمثال

لكلام الله وكلام رسوله، وهذا هو مسلك أهل البدع والأهواء، فاحذروه.

ثُمَّ قَالَ: ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ قائمًا علىٰ شئون خلقه بالعدل، يَخفض ويرفع، ويعطي ويَمنع، ويعز ويذل، وله فِي كل ذلك حكمة.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خَتمَهَا ﷺ بِمَا بَدَأهَا به، بَدَأهَا بوحدانيته، وخَتَمَهَا بوحدانيته، وفيها من باب الأسمَاء والصِّفَات: العزيز، والحَكيم، فالعزيز: يَتَضَمَّن صفة العزَّة، والحَكيم: يَتَضَمَّن صفة الحِكمَة.

الحَكيم مَعنَاهُ: المُحكم المُتقن، هذا أحد معنييه، والآخر الحَاكم بين خلقه.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وتفسيرها الذي يُوَضِّحها قوله تعالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤].

الشرح

وتفسيرها: توضيحها ما يَدُل علىٰ النفي والإثبات، وذكر الأدلة عَلَىٰ مَا تتضمنه كلمة الإخلاص من النفي والإثبات، فلنطبق رُكنَي لا إله إلَّا الله عَلَىٰ آيات الزخرف:

أولًا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ فأين تأكيد النفي، وأين تأكيد الإثبات؟

قوله -جل وعلا- عن إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا يوضح النفي «لا إله».

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يوافق «إلَّا الله» الإثبات.

فَالشَّطر الأول من الآية يُوَافق الشطر الأول من الكلمة، والشَّطر الثانِي يوافق الشَّطر الثانِي منها؛ إذن تضمنت آية الزخرف البَرَاءة من كُلِّ مَعبُود سوىٰ الله ﷻ، وأثبتت العبادة لله ﷻ، تضمنت البَرَاءَة من عبادة الأصنام والأوثان، وإثبات العبادة لله ﷻ، وهذا دليل علىٰ أنَّ الأنبياء مُتَّفقُونَ عَلَىٰ هذه الدَّعوَة.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: إبراهيم ﷺ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فِي نسله، جَعَل كلمة «لا إله إلَّا الله»، أو جَعَلَ البراءة من عبادة غير الله وإثبات العبادة لله كلمة باقيةً فِي عقبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الشرك إلَىٰ توحيد الله ﷻ .

ومن نسل إبراهيم قريش؛ إذن هذه الآية فيها ردٌّ عَلَىٰ قريش وتوبيخ لَهُم؛ إذ كانوا ينتسبون إلَىٰ إبراهيم، فَكَانَ الأجدر بِهم أن يكونوا عَلَىٰ دينه الذي جَاءَ به ولده مُحَمَّد ﷺ، وهو الدَّعوَة إلَىٰ عبادة الله وحده.

الآية الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذه الآية جاءت فِي خطاب النَّصارَىٰ الذين قالوا: إن المَسيح ابن الله. يُقَال: إنَّهَا نزلت فِي وفد نَجران من النَّصارَىٰ[1]، المُهم عندنا أنَّ الله ﷻ أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يَدعُو أهل الكتاب إلَىٰ: ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ متفق عليها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، وهذه الكلمة: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

إذن ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ توافق «لا إله».

﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ توافق الشطر الثانِي من الكلمة.

وعَلَىٰ هَذَا فأهل الكتاب مَدعُوون إلَىٰ اتباع مُحَمَّد ﷺ عَلَىٰ مَا جَاءَ به، وجاءت به قبله الأنبياء، ومنهم عيسىٰ ﷺ وموسىٰ ﷺ، وهي دين واحد، وهَذَا الدين «لا إله إلَّا الله»، لا معبود بِحَقٍّ سواه، كل مَعبُود سوىٰ الله باطل، وعَلَىٰ هذا فالآية دليل علىٰ عُمُوم رسالة مُحَمَّد ﷺ.

ويُؤكِّد هَذَا ويُوَضِّحه: الحَديث الصَّحيح: **«وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسمَعُ بِي**

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (١/ ٤٩٤).

يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَم يُؤمِن بِي؛ إِلَّا أَدخَلَهُ الله النَّارَ»[1]. فهو خَاتَم النبيين، ولا نبِي بعده، فَمَن علم برسالة نبيناﷺ؛ وَجَبَ عليه السَّعي والتَّعَرُّف عَلَىٰ هَذَا الدِّين، والإيمَان به، قامت عليه الحُجَّة إذا لَم يُؤمن.

وعَلَىٰ هَذَا لا تقريب؛ إمَّا إسلام، وإمَّا كُفر، لا تقريب بين المُسلمين والنَّصَارَىٰ واليهود أبدًا، لكن التَّعَامل الدنيوي لِمَصلَحَة الإسلام وأهل الإسلام لا بأس به، أمَّا تقريب ومُيُوعَة ووحدة أديان كَمَا يدعو إليها بعض المُنظرين من زُعَمَاء بعض الحَرَكَات الإسلاميَّة؛ فإنه والله كُفر بعد إيمَان.

أنا أقول: وحدة الأديان هذه كُفر بعد الإيمَان؛ لأنَّ الإسلام هو المُهَيمن، هو دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]. حصر ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾.

والقارعة الأخرىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. ولِهَذَا قال الله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]. يَعنِي: وأنتم الكفَّار، اشهدوا بأنا مُسلمون؛ لأنا قبلنا دين الله، وأخلصنا العبادة له، ولَم نعتقد إلَهِيَّة لأحد سواه -جَلَّ وعلا-.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمَان، باب: وُجُوب الإيمَان برسالة نبينا مُحَمَّدﷺ إلَىٰ جَميع الناس، برقم (٣٨٤).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل شهادة أنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله قوله تعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ومَعنَىٰ شهادة أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طاعته فيما أمَرَ، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نَهَىٰ وزَجَرَ، وألَّا يعبد الله إلَّا بِمَا شرع.

الشــرح

شهادة أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: ما معناها المُختَصَر؟

اعتراف المُكَلف لِمُحَمَّدﷺ بالرِّسَالة العَامَّة الخَاتِمَة.

ومعناها الواسع -كَمَا ذَكَرَه الشيخ- يتضمن أربع خصال:

- طاعته فيما أمر.

- وتصديقه فيما أخبر به؛ لأنه قد يطيع المُكلف، لكن لا يُصَدق، لابد من تصديقه بما أخبر حَاضرًا ومَاضيًا ومُستَقبلًا، عبادةً ومعاملةً.

- **والثالثة:** اجتناب مَا نَهَىٰ عنه وزجر، اجتناب منهياته؛ إذن مع الأوامر والتصديق لابد من اجتناب المَنهيَّات.

- **والرَّابعَة:** ألَّا يعبد الله إلَّا بِمَا شرع.

فبهذه المَعَانِي الأربعة تتحقق الشهادة لرسول اللهﷺ، وتَتَجَرَّد له المُتَابَعَة، ويُنَاسب هاهنا ذكر ست صور تَجب موافقة العمل فيها للسنَّة، وإلَّا كان مَردُودًا عَلَىٰ صاحبه، ونوضح ذلكم بالأمثلة وهي:

- **المُوَافقة فِي الجِنس**: شخصان أحدهُمَا ضَحَّىٰ بغزال، والآخر ضَحَّىٰ بشاة، أيهما المَقبُول؟ الشاة، والغزال قد يكون أغلىٰ، سبحان الله! ألا يكون الغزال أغلىٰ فِي بعض الأحيان؟! قد يكون أغلىٰ؛ لأن صاحب الشَّاة وَافَقَ الشَّرع فِي الجِنس، وصاحب الغزال خَالَفَ الشَّرع فِي الجِنس، فَرُدَّت عليه أضحيته.

- **المُوَافَقَة فِي السَّبب**: أحد المُسلمين صَامَ يوم الإثنين؛ لأنه يوم تُعرَضُ فيه الأعمال عَلَىٰ الله، فَأَحَبَّ أن يُعرَضَ عمله وهو صائم، والآخر صَامَهُ لأنه السَّابع والعشرين من رَجَب، كلهم صَامَ الإثنين، ولعل الثانِي تَسَحَّرَ قبل الأول بثلاث ساعات!! أيهما الذي صيامه مقبول؟ الأول؛ لأنه وَافَقَ الشَّرع فِي السَّبب، والثانِي خَالَفَ الشَّرع فِي السَّبب.

الثانِي يعتقد أن رحلة الإسراء والمِعرَاج فِي السَّابع والعشرين من رَجَب فَصَامَه، هل هَذَا مَشروع؟ أليس كلاهُمَا صَام الإثنين؟ كلاهُمَا صَام الإثنين من طلوع الفَجر إِلَىٰ غُرُوب الشَّمس، لكن الأول قبل عَمَله، والثانِي رد عمله؛ لأنه خَالَفَ الشَّرع فِي السَّبب.

- **المُوَافَقَة فِي الصِّفَة**: أحد الناس سَيُصَلِّي الظهر أربع ركعات، ويقرأ مائة آية مع الفَاتِحَة، ويُسَبح مائة تسبيحة فِي كُلٍّ من الركوع والسجود، سَجَدَ ثُمَّ قَامَ من السجود، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، وهكذا حتَّىٰ انتهت الأربع الرَّكَعَات، فَهَذَا صلاته غير مقبوله؛ لأنه خَالَفَ الشَّرع فِي الصِّفَة.

- **المُوَافَقَة فِي المِقدَار أو العدد**: قَالَ: إنه سَيُصَلِّي الظهر ست ركعات، ليس أربعًا فريضة وركعتان سنَّة، وإنَّمَا يُصَلِّي الفرض ست ركعات، ويقرأ سُورَة

طويلة، ويركع رُكُوعًا طَويلًا، ويقوم قيامًا طويلًا أكثر من غيره الذي يصلي أربع فِي ثَمَان دقائق، أو عشر ركعات إذا أطال، وأخونا صَلَّىٰ ست ركعات، فيها زيادة عمل أم لا؟

فيها زيادة عَمَل، فيها أولًا أنه أطال فِي الركوع والسجود والقيام والتسبيح، وثانيًا فيها ثلاث تشهدات: صَلَّىٰ ركعتين، ثُمَّ قَامَ، ثُمَّ صَلَّىٰ ركعتين فَجَلَسَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ وهكذا ... عَمَلَ زيادة: **فما حكم صلاته ولِمَاذا؟**

صلاته باطلة؛ لأنه خَالَفَ الشَّرع فِي المِقدَار الذي حَدَّدَهُ رَسُولُ اللهﷺ، عَبَدَ الله بِمَا لَم يشرعه رسول اللهﷺ.

- **المُوَافقَة فِي الزَّمَان**: مُوَافقَة الشَّرع فِي زَمَان العبادة، مثاله: رَجُل أحرم بالحَجِّ فِي رَمَضَان، وبقي علىٰ إحرامه، وغيره أحرم بالحَجِّ يوم ثَمَانية من ذي الحِجَّة، فالأول حجه باطل لِمُخَالفته الشَّرع فِي الزَّمَان، والثانِي حجه صحيح لِمُوَافقته الشَّرع فِي الزَّمَان.

- **المُوَافَقَة فِي المَكَان**: أين يقف الحَاج يوم تسعة؟ فِي عَرَفَة، الوقوف يبدأ من الزَّوَال حتَّىٰ غُرُوب الشَّمس، هَذَا مُجتَهد يريد الخَير، وقَالَ حتَّىٰ يتلذذ بالعبادة، ويَخلو ويبتعد عن الرِّياء يترك الناس يذهبون لعَرَفَة، وهو يقف فِي مُزدَلفَة ثمانية، وتسعة، ويوم عشرة بعد العصر ينصرف إِلَىٰ منًىٰ، وغيره وهُمُ الذين وَقَفُوا بعَرَفَةَ من بعد الزَّوَال يوم التاسع من ذي الحِجَّة إِلَىٰ غُرُوب الشَّمس.

هَذَا ثلاثة أيام وَقَفَ فِي مُزدَلفَة، ويذكر الله ويُصَلِّي ما تَيَسَّرَ له من التَّطوعَات المُطلقة وقيام الليل، ومَعَ هَذَا فحجه باطل؛ لأنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الحَجُّ**

عَرَفَة»[١]. فَهُوَ خَالَفَ الشَّرع فِي مَكَان العبادة.

قوله تعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. تضمنت الآية أوصافهﷺ أو من أعظم أوصافه:

فالوصف الأول: أنه: ﴿رَسُولٌ﴾ وهَذَا أعظم أوصافه علىٰ الإطلاق مُرسل من الله.

والثانِي: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفونه، وما كَانَ مَعرُوفًا فإنه أولَىٰ بالتصديق؛ لأنه كَمَا قَالَﷺ: «**الأَروَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنهَا ائتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنهَا اختَلَفَ**»[٢]. فالقوم يعرفونه، ويعرفون عنه الصِّدق والأمانة والحِلم والشَّجَاعَة، يعرفون عنه ما يَدعُوهُم إلَىٰ تصديقه، لكن تَنكَّرُوا له حينما دَعَاهُم لعبادة الله وحده، وهَكَذَا الهَوَىٰ يفرق.

والوصف الثالث: فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يَشُق عليه ما فيه مَشَقَّة عليكم، وهَذَا كَمَال شَفَقَتهﷺ بأمته، فإنهﷺ مُيسر لا مُعسر: «وَكَانَﷺ لاَ يُخَيَّرُ بَينَ أَمرَينِ إِلَّا اختَارَ أَيسَرَهُمَا وَأَسهَلَهُمَا مَا لَم يَكُن إِثمًا»[٣]، ﴿حَرِيصٌ

(١) أخرجه النسائي كتاب مناسك الحَج، باب: فرض الوقوف بعرفة (٣٠١٦)، وصَحَّحَهُ الألبانِي فِي الإرواء برقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري مُعَلقًا كتاب الأنبياء، باب: الأرواح جنود مُجَنَّدة، برقم (٣٣٣٦) عن عائشة، ومسلم مَوصُولًا كتاب البر والصِّلة، باب: الأرواح جنود مُجَندة، برقم (٦٦٥٠) عن أَبِي هُرَيرَة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الحُدُود، باب: إقامة الحُدُود والانتقام لِحُرُمات الله، برقم (٦٧٨٦)، =

عَلَيْكُم ﴾ حريص عَلَىٰ هدايتكم حتَّىٰ تكونوا مؤمنين مسلمين.

والوصف الخَامس: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومَفهُوم هَذَا أنه شديد ﷺ عَلَىٰ غير أهل الإسلام.

❀❀❀

=

ومسلم كتاب الفَضَائل، باب: مُبَاعَدته ﷺ للآثام واختياره من المُبَاح أسهله، برقم (٦٠٠٢) عن عَائشَةَ رضي الله عنها.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ودليل الصَّلاة، والزكاة، وتفسير التوحيد قوله تعَالَىٰ:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

الشـــرح

هذه الآية تَضَمَّنت ثلاثة أمور: الصَّلاة، والزكاة، وتفسير التوحيد.

فدليل الصَّلاة: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ودليل الزكاة: ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أي: يُؤَدُّونَهَا.

والثالثة تفسير التوحيد: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، فإخلاص الدِّين لله هُوَ التوحيد نفسه.

قال فيها: ﴿حُنَفَآءَ﴾ وهو جَمع حنيف، ثُمَّ أخبر ﷻ أنَّ هذه الأشياء المَذكُورَة فِي الآية هي: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: المِلَّة القَويمَة الَّتِي لا عوج فيها ولا نقص: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك المَأمور به فِي الآية.

وهُنَا سؤال: **ما وجه التخصيص في ذكر الصَّلاة و الزكاة من بين سائر العبادات العملية؟**

لأنَّهَا أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين: الصَّلاة، ثُمَّ الزكاة.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ودليل الصِّيام قوله تعالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

الشــرح

الصِّيام مَعنَاه فِي اللغة: الإمساك، صَامَ عن الشَّيء: أمسك عنه.

وفِي الشرع: هو إمساك بنيَّة عن شَهوَتَي البطن والفرج، من طلوع الفجر إلَىٰ غُرُوب الشَّمس، والصِّيام المَنصُوص عليه فِي الآية هُوَ صيام رَمَضَان، وقد بيَّنه بقوله بعدُ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ [البقرة:١٨٥].

* وشُرُوط وُجُوب الصِّيام هي:

- أولًا: التكليف، ويشمل البلوغ والعقل.

- ثانيًا: الإقامة.

- ثالثًا: السَّلامَة من الأمراض المُبيحَة للفطر.

- رابعًا: دُخُولُ شَهر رَمَضَان بالبيِّنة، وهي رؤية الهِلال أو إكمال شعبان ثلاثين يومًا، قَالَ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤيَتِهِ، وَأَفطِرُوا لِرُؤيَتِهِ، فَإِن غُبِّيَ عَلَيكُم فَأَكمِلُوا عِدَّةَ شَعبَانَ ثَلَاثِينَ»[1].

وتزيد المَرأة شرطًا واحدًا وهو: الطَّهَارَة من الحَيض والنِّفَاس، ويَحرم

(١) أخرجه البخاري كتاب الصَّوم، باب: قول النَّبي ﷺ: إذا رأيتم الهِلال فَصُومُوا برقم (١٩٠٩)، ومسلم كتاب الصِّيام، باب: وُجُوب صَوم رَمَضَان لرؤية الهِلال، برقم (٢٤٩٦).

عليها صيام رَمَضَان، ولكن تصومه قَضَاءً.

قوله تعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كَمَا قَالَ ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**»[١]. أي: وقاية من شَهوَة النفس، وكذلك وقاية للسان من الرَّفَث؛ قَالَ ﷺ: «**يَا مَعشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ استَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ فَليَتَزَوَّج، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحصَنُ لِلفَرجِ وَأَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَمَن لَم يَستَطِع فَعَلَيهِ بِالصَّومِ؛ فَإِنَّه لَهُ وِجَاءٌ**»[٢].

ولا يَجب غير صيام رَمَضَان، إلَّا مَا كَانَ نذرًا أو كَفَّارَة، أو بَدَل عن دم مُتعَة أو قِران، أو فدية أذىً.

❊❊❊

(١) جُزء من حديث أخرجه البخاري كتاب الصَّوم، باب: فضل الصَّوم، برقم (١٨٩٤)، ومسلم فِي الصِّيام، باب: حفظ اللسان للصَّائم، برقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب: قول النَّبِي ﷺ: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، برقم (٥٠٦٥)، ومسلم كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لِمَن تاقت نفسه إليه، برقم (٣٣٨٤).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: **ودليل الحَجِّ قوله تعالَىٰ:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

الشـــرح

الحَج لغة: القصد.

واصطلاحًا: قصد البيت الحَرَام فِي وقت مَخصُوص، لعملٍ مَخصُوص، عَلَىٰ هيئة مَخصُوصَة.

وقت مَخصُوص: أشهر الحَجِّ المَعرُوفَة.

لعَمَل مَخصُوص: وهو الأركان المَعرُوفَة.

عَلَىٰ هيئة مَخصُوصَة: منها الإحرام.

والحَجُّ وَاجبٌ كَسَائر أركان الإسلام، واجب بالكتاب والسنَّة والإجمَاع، مرة واحدة في العمر، وأصح القولين أنه علىٰ الفور فِي أول زَمَن الإمكان.

* **وشُرُوط الحَجِّ هي:**

- **أولًا:** الإسلام.

- **الثانِي:** التكليف.

- **الثالث:** الحُريَّة.

- **الرابع:** الاستطاعة؛ استطاعة السَّبيل، واستطاعة فِي البدن، وفِي المَال، وفِي الطريق هذه مشتركة، وتزيد المَرأة شرطًا هو: وجود مَحرمها أو زوجها.

والمَحرم: من تَحرم عليه مُؤبدًا بنسب، أو سَبَب مُبَاح.

النسب: كالأبوة، والبنوَّة، والأخوة، والعُمُومَة، وابن أخيها، وابن أختها، وخَالِهَا، وعَمِّهَا.

والسَّبب: كالمُصَاهَرة مثل: زوج بنتها، وابن زوجها من غيرها، أو ولدها من الرَّضَاعَة، أو ابن أختها من الرَّضَاعَة، أو ابن أخيها من الرَّضَاعَة، أو ابن بنتها من الرَّضَاعَة.

وعَلَىٰ هَذَا: هل تَحج المَرأة مع مَن لاعَنَهَا؟

المُلاعَنَة: هو أيمَانٌ بين الزوجين فِي حال تهمة الرجل زوجه بالزنا، يُفرق بينه وبينه بِمُوجبهَا.

فلا تَحُج المَرأة مع مَن لاعنها، وإن كانت مُحَرَّمَة عليه عَلَىٰ التأبيد؛ لأنَّ السَّببَ عُقُوبَة شَرعيَّة، وكثير من المُسلمين -هَدَانا الله وإيَّاهُم وإيَّاكم سبيل الرَّشَاد- يَتَسَاهَلُونَ فتحج المَرأة مع رُفقَة فيها ابن عَمِّهَا وابن خالتها بِحُجَّة أنَّ هؤلاء كل واحد معه زوجه أو مَحرمه!! وهذا خلاف ما قالﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لامرَأَةٍ تُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَن تُسَافِرَ مَعَ غَيرِ ذِي مَحرَمٍ**»[1].

꧁ ❋ ❋ ❋ ꧂

---

(١) أخرج البخاري عن أبي هُرَيرَة ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لامرَأَةٍ تُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَن تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَومٍ وَلَيلَةٍ لَيسَ مَعَهَا حُرمَةٌ**». كتاب الصَّلاة، باب: فِي كم يقصر الصَّلاة، برقم (١٠٨٨)، ومسلم فِي الحَجِّ، باب: سفر المَرأة مع مَحرم إلَىٰ حج وغيره، برقم (٣٢٥٧).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: المَرتبة الثانية: الإيمَان، وهو بضع وسبعون شُعبَة: فأعلاها قول: لا إله إلَّا الله، وأدناها إمَاطَة الأذىٰ عن الطريق، والحَيَاء شُعبَة من الإيمَان،

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقَدَر خيره وشَرِّه.

والدليل عَلَىٰ هذه الأركان الستة قوله تعَالَىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

ودليل القدر قوله تعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

الشرح

الإيمَان لغة: التصديق.

واصطلاحًا: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعَمَل بالجَوَارح، يزيد بالطَّاعَة، وينقص بالمَعصية.

وهذا التعريف هو الراجح من بين عدَّة تعريفات نَختصرها، ودلالة رُجحَان هَذَا التعريف قد جاءت فِي الكتاب والسنَّة.

فمن الكتاب الكَريم: قوله تعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥]. ووجه الدلالة من الآية: فِي ذكر الجِهَاد ضمن خصال الإيمَان الواردة فِي الآية وهُوَ عَمَل.

ومن السنَّة: ما رَوَاهُ الشيخان عن أَبِي جَمرة قَالَ: «كُنتُ أُترجِمُ بَينَ ابنِ عَبَّاسٍ وَالنَّاسِ فَأَتَتهُ امرَأَةٌ تَسأَلُهُ عَن نَبيذِ الجَرِّ؟ فَقَالَ: إِنَّ وَفدَ عَبدِ القَيسِ أَتَوا رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَنِ الوَفد؟ -أَو مَنِ القَوم؟-**.

قَالُوا: رَبِيعَةُ.

قَالَ: **مَرحَبًا بِالقَومِ -أَو بِالوَفدِ- غَير خَزَايَا وَلاَ نَدَامَىٰ**.

قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَأتِيكَ بشقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَإِنَّ بَينَنَا وَبَينَكَ هَذَا الحَيَّ مِن كُفَّارِ مُضَرَ، وَإِنَّا لاَ نَستَطِيعُ أَن نَأتِيَكَ إِلَّا فِي شَهرِ الحَرَامِ، فَمُرنَا بِأَمرٍ فَصلٍ نُخبِر بِهِ مَن وَرَاءَنَا، نَدخُل بِهِ الجَنَّةَ.

قَالَ: فَأَمَرَهُم بِأَربَعٍ، وَنَهَاهُم عَن أَربَعٍ، قَالَ: أَمَرَهُم بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحدَهُ، وَقَالَ: **هَل تَدرُونَ مَا الإِيمَانِ بِاللهِ؟**

قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

قَالَ: **شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَأَن تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ المَغنَمِ ...**» الحَدِيث(١).

فالشاهد منه: تفسير النَّبي ﷺ الإيمَان بأعمال الإسلام الظاهرة.

قَالَ الشيخ: «هو بضع وستون شعبة -أو بضع وسبعون شعبة- أعلاها قول: لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحَيَاء شعبة من الإيمَان».

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمَان، باب: أداء الخُمس من الإيمَان، برقم (٥٣)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: الأمر بالإيمَان بالله تعَالَىٰ ورسوله ﷺ وشرائع الدِّين، والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لَم يبلغه، برقم (١١٦) واللفظ له.

هَذَا القول جاء فِي حديث صحيح متفق عليه، وهو قوله ﷺ: **«الإِيمَانُ بِضعٌ وَسِتونَ شُعبَةً -أَو بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَةً- أَعلاَهَا: قَولُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدنَاهُ: إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»**[1].

أعلاها قول: «لا إله إلا الله»: الحَقيقَة ننظر: كيف بدأ النَّبِي ﷺ الناس: بأعلىٰ الإيمَان أم بأدنَىٰ الإيمَان؟

بأعلىٰ الإيمَان، وذلكم أنه عَلَىٰ سبيل المِثَال فِي حديث بعث مُعَاذ إِلَىٰ اليَمَن قال ﷺ لِمُعَاذ: **«إِنَّكَ تَأتِي قَومًا أَهلَ كِتَابٍ، فَليَكُن أَوَّلُ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهَادَةَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله ...»** الحَديث[2].

ثُمَّ استدل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ أركان الإيمَان الستة بآيتين: إحدَاهُمَا حَوَت خَمسَة أركان، وهي الآية الأولَىٰ.

*** فالأركان الخَمسَة هي:**

١- الإيمَان بالله.

٢- اليوم الآخر.

٣- المَلائكَة.

٤- الكتاب.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمَان، باب: أمور الإيمَان، برقم (٩)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: بَيَان عَدَد شُعَبِ الإيمَان وأفضلها وأدناها، برقم (١٥١) عن أَبِي هُرَيرَةَ.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الزكاة، باب: أخذ الصَّدَقَة من الأغنياء وترد فِي الفقراء حيث كانوا، برقم (١٤٩٦) من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

٥- النبيين.

هذه الآية حَوَت أركانًا خَمسَة من أركان الإيمَان الستة، وبدأت بالإيمَان بالله لأنه الأصل، ثُمَّ تبع ذلك الإيمَان باليوم الآخر؛ لأنه هُوَ وقت الحِسَاب والجَزَاء، فالاستعداد له واجب، ثُمَّ ثَلَّث ﷺ بالمَلائكة، وقد تَقَدَّم تعريفهم، وماذا أيضًا؟ الكتاب؛ لأنَّ الكتب هي طرق الهِدَايَة، وخَتَمَ بالرسل؛ لأنَّ الرسل يُبَلغُونَ عن الله ما أنزله عَلَىٰ خلقه من الوحي.

الآية الثانية تَضَمَّنت الركن السَّادس: الإيمَان بالقَدَر خيره وشَرِّه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

والقَدَرُ فِي اللغة: من التقدير، يُقَالُ: قَدَّرتُ الشيء إذا أحطت بِمِقدَاره.

واصطلاحًا: هو تقدير الله للأشياء قبل حُدُوثها تقديرًا يُوَافق علمه وكتابته: كمًّا وكيفًا، وزَمَانًا ومَكَانًا.

*** وله أربع مراتب وهي:**

- **أولًا: العلم:** أي: علم الله بِمَا كَانَ، ومَا يَكُون، وما لَم يكن لو كَانَ كيف يكون.

- **ثانيًا: الكتابة:** حيث أمَرَ القَلَمَ بكتابة مَا هو كائن وفق علمه إلَىٰ قيام السَّاعَة.

- **ثالثًا: المَشيئَة:** فَمَا شَاءَ كان، ومَا لَم يشأ لَم يكن.

- **رابعًا: الخَلق.**

هَذَا التقسيم يُسَمِّيه أهل العلم: «القَدَر العَام أو القدر الإجمَالِي»، **وهل ثمة**

مَرَاتب تفصيلية للقدر وما هي؟

القدر ينقسم إِلَىٰ قسمين: عام إجمَالِي، وتفصيلي.

فَالعَام الإجمَالِي: هُوَ مَا تَقَدَّم.

بقي القَدَرُ التفصيلي: قال أهل العلم -كشيخ الإسلام وغيره-: وتفصيل العلم والكتابة ينقسم إِلَىٰ ثلاث مراتب، وبقية المَراتب مُتَفَرِّعَة عن العلم والكتابة، موافقة للعلم والكتابة.

وتلك المَرَاتب هي: عمري، وحَولِي، ويومي:

فَالعُمري: ما يَجري عَلَىٰ الإنسان فِي عُمره من حين يُخلق حتَّىٰ يَمُوتَ، فإنَّ ما قَدرَه الله عَلَىٰ الإنسان أو له قبل خلق السَّمَوات والأرض يفصل منه ما يَخص الإنسان المُعَين مُدَّة عمره؛ وسواء كَانَ عُمره طويلًا كمائة سَنَة، أو قصيرًا كَمَا شَاءَ الله من السنين والشهور والأيام.

بِمَعنَىٰ: أنَّ كل إنسان قبل ولادته يفصل ما يستحقه من القدر العام، فلان من الناس كَم عُمره؟ مثلًا مائة سَنَة، حين ينفخ فيه الروح يقدر من اللوح المَحفُوظ الذي كَانَ فيه، كل شيء يقدر له نصيبه، منه نصيب ذلك الإنسان من خير وشَرٍّ ورزق، كل شيء فلا يفوت شيء.

ودليل هذه المَرتَبَة -وهي التقدير العمري-: حديث ابن مسعود، وهو حديث الصَّادق المَصدُوق: «.. **يُرسَلُ إِلَيهِ المَلَكُ، فَيَنفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤمَرُ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتبِ رِزقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخَلق: باب ذكر المَلائكة، برقم (٣٢٠٨)، ومُسلم فِي كتاب القدر، باب: كيفية خلق الآدمي فِي بطن أمِّه، برقم (٦٦٦٥).

هَذَا التقدير العمري أُخِذَ من أين؟

أُخِذَ من اللوح المَحفُوظ قبل خَلق السَّمَوَات والأرض بِمَا شاء الله؛ لأنَّ الله لَمَّا خَلَقَ القلم قَالَ له: «**اكتُب. قَالَ: وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ**»(١).

إذن هَذَا الإنسان الذي نُفِخَت فيه الرُّوح ما يَخصه جديد أم أزلِي؟ أزلِي، ولكن فصل ما يَخصه جديد، فالذي تَغَيَّر ليس علم الله ﷻ ولا كتابته، ولكن الذي تَغيَّرَ علم المَلَك، فلان اكتب له كَذَا من الرِّزق، وكَذَا من العُمر، وكذا من جَميع مَعَايشه ومَصَالِحه، وما يَجري عليه من خير وشَرٍّ.

المَرتبة الثانية من القدر التفصيلي: التقدير الحَولِي: وهَذَا وقته ليلة القدر، وكيفيته: أنه يفصل من اللوح المَحفُوظ ما يَخص سَنَة بعينها من ليلة القدر مثلها من العام القادم، ليلة القدر معلوم أَنَّهَا فِي أوتار العشر الأواخر من رَمَضَان، يفصل من اللوح المَحفُوظ ما يَخص السَّنة إلَىٰ مثلها، فما يَخص سَنَة كذا يفصل ليلة القدر إلَىٰ مثلها من العام القادم.

ودليله: قوله تعَالَىٰ فِي أول سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:١-٤]. يَعنِي: فِي هذه الليلة.

ما مَعنَىٰ ﴿يُفۡرَقُ﴾؟

قال أهل العلم: يفصل من اللوح المَحفُوظ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود كتاب السنَّة، باب: فِي القدر، برقم (٤٧٠٠)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي ظلال الجَنة برقم (١٠٣).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكانِي (٤/ ٨١١).

المَرتبَة الثالثة: التقدير اليومي: يَعنِي: ما يَخص اليوم بعينه.

وهَذَا دليله: قوله تعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩]. يعز ويذل، يُحيي ويُميت، يعطي ويَمنع، ويفقر ويغنِي، ويرفع ويَخفض.

مثلًا: علم الله فلانًا من الناس اسمَه وأمَّه وأباه وقبيلته، وكل ما يَجري عليه، وكَتَبَ الله ذلك فِي اللوح المَحفُوظ هذا متَىٰ؟ قبل خلق السَّمَوَات والأرض، هذا يُسَمَّىٰ تقديرًا عامًّا، إذا نفخ الروح فِي هذا فلان بن فلان فصل ما يَخص عمره، هذا فلان الذي عَلِم الله عنه كل شيء، وكتبه فِي اللوح المَحفُوظ، إذا نَفَخَ فيه الروح يفصل ويكتب ما يَخصه فِي عمره كم سَنَة؟ مائة سَنَة، مائتَا سَنَة، عشر سنين، خَمسة أيام، عشرة أيام، مائة شهر، ما قَلَّ وما كثر من عمره.

الكون كله علمنا أنه عَلِمَه الله ﷻ، عَلِمَ ما يَجري فِي الكون كله ليس شيءٌ جديد علىٰ الله ﷻ، فَهَذَا يَجب أن يُؤخَذ قاعدة حتَّىٰ لا تنفرط عليكم معرفة القَضَاء والقَدَر، فإنه ليس بابًا سَهلًا، بل هو بابٌ شائك، لكن مَن ضبط مَرَاتبَه سَهُل عليه.

الآن عندنا علم الله بالأشياء قبل حُدُوثها، وماذا أيضًا: وكتابة ذلك فِي اللوح المَحفُوظ، يَعنِي: كتب فِي اللوح المَحفُوظ وفق علمه، وكل شيء يَجري وفق علمه وكتابته، فنحن بَينَّا لكم التقدير العمري؛ أي: ما يَخص كل إنسان فِي عُمره هو، فِي خَاصَّة نفسه.

أمَّا التقدير الحَولِي: هَذَا ما يَجري فِي الكون خلال سَنَة، يُفصل للملائكة المُوَكلين به سَنَة كذا من ليلة القدر إلَىٰ مثلها، يَجري فيها كذا وكذا.

واليومي: كذلك ما يَجري فِي الكون كله، ومنه الإنسان والحَيَوان حتَّىٰ الذرة، هَذَا ما ألهَمَنا الله ﷻ، وفتح به علينا فِي باب القَضَاء والقدر.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: المَرتبَة الثالثة: الإحسان، رُكنٌ واحد، وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنه يَرَاكَ.

الشـــرح

المَرتبَة الثالثة من مَرَاتب الدِّين وهي الإحسان: هو أداء الشيء علىٰ أكمل وجه، وهو ثلاثة أقسام:

- إحسان عَلَىٰ العبد فيما بينه وبين ربِّه.
- وإحسان عَلَىٰ العبد فيما بينه وبين نفسه.
- وإحسان علىٰ العبد فيما بينه وبين المَخلوقات حتَّىٰ البهائم.

والإحسان فِي الشَّرع كَمَا ذَكَرَ الشيخ، وهو وارد فِي حديث جبريل المَشهُور: «**أَن تَعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». هذا تعريفٌ نبويٌّ من مُحَمَّدٍ ﷺ، لا مَجَال لأحد حتَّىٰ يَتَصَرَّف فيه، أو يقول: نَحفظه، أو نُعبِّر عنه بالمَعنَىٰ أو باللفظ، جُملتان: «**أَن تَعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».
لا تَخفَىٰ عليه منك حَرَكةٌ ولا سكنة، والأدلة عليه من الكتاب الكَريم كثيرة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

الشرح

* هذه الآية تَضَمَّنت:

- أولًا: الأمر بالإحسان بأقسامه الثلاثة الَّتِي أسلفناها آنفًا، ماذا وَعَدَ الله المُحسنين؟ وَعَدَهُم أنه مَعَهُم.

- ثانيًا: إثبات مَعيَّة الله تَعَالَى لأهل التقوىٰ و الإحسان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وهي المَعيَّة الخَاصَّة، ومِمَّا تقتضيه: الحِفظ، والتأييد، والتثبيت عَلَىٰ الحَقِّ، والتوفيق.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

الشـــرح

*** ما شاهد الإحسان منها؟**

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلَىٰ آخرها.

قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيها:

أولًا: أمر بالتوكل.

وثانيًا: إثبات اسمَين من أسمَاء الرَّبِّ -جَلَّ وعلا-، وهُمَا: «العزيز والرحيم»، وكل اسم منهما يَتَضَمَّن صفة له جَلَّ وَعَلَا.

ثالثًا: الحَث علىٰ الإحسان كَمَا قَدَّمناه بأقسامه الثلاثة.

رابعًا: فيها حث علىٰ صلاة الجَمَاعَة فِي قوله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: المُصَلين، وتَخصيص السجود؛ لأنه أشرف أفعال الصَّلاة.

خَامسًا: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فيها إثبات السَّمع والعلم لله جَلَّ وَعَلَا، من اسمَيه «السَّميع العليم»، وهَذَا يقتضي مُرَاقبة العبد لله، فإنه يعلم منه أقواله وأعماله، ويسمع ذلك، يسمع المَسمُوعَات، ويَرَىٰ المُبصرَات، ويعلم المَعلومَات حتَّىٰ الوَسَاوس.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦].

قال ابن كثير: «يخبر تعالىٰ عن قدرته علىٰ الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتىٰ أنه تعالىٰ يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر»[1]. اهـ

❀❀❀

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٩).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١].

الشرح

وجه دلالتها على الإحسان: ما تضمنته من رُؤيَة الله عَجَلَّ، وعلمه بِمَا يُحدثه العباد فِي كلام الله والخَوض فيه.

وتمام الآية: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١].

وما أحسن ما قاله العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالىٰ، عن عموم مشاهدته، وإطلاعه علىٰ جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته علىٰ الدوام، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم علىٰ العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها علىٰ وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم، وما يكره الله تعالىٰ، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرىٰ به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]»[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٢٨).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والدليل من السنَّة: حديث جبرائيل المَشهُور عن عُمَر رضي الله عنه قَالَ: «بَينَمَا نَحنُ عِندَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوم إِذ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ: شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لاَ يُرَىٰ عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِي ﷺ، فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكبَتَيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيهِ.

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخبِرنِي عَنِ الإِسلاَمِ؟

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الإِسلاَمُ أَن تَشهَدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إِنِ استَطَعتَ إِلَيهِ سَبِيلًا.

قَالَ: صَدَقتَ. فَعَجِبنَا لَهُ يَسأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

قَالَ: صَدَقتَ، قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ الإِحسَانِ؟

قَالَ: أَن تَعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسئُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِنَ السَّائِلِ!!

قَالَ: فَأَخبِرنِي عَن أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَن تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاةِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ.

قَالَ: فَمَضَىٰ، فَلَبِثنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَتَدرِي مَنِ السَّائِلُ؟

قُلتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

قَالَ: قَالَ: هَذَا جِبرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم أَمرَ دِينِكُم»[١].

الشـــرح

هَذَا الحَدِيث دلالته عَلَىٰ مَرَاتب الدِّين الثلاث وَاضحَة، وذلكم فِي تضمنه كل مرتبة مُفَصَّلةً بتعريفها وأركانِهَا، والحَديث يَحتَاج إِلَىٰ جَلَسَات حتَّىٰ يستنبط ما يَحويه من الفقه فِي الدِّين، ولكن نستنبط بعضًا من أحكامه:

* نستطيع -بعُرف اليوم- أن نقول: أدب السائل مَعَ المَسئول، ومنه أدب الطالب مَعَ المُعلم.

* إن هذه المَرَاتب الثلاث هي مَرَاتب الدِّين، ومن الدِّين الاستعداد لليوم الآخر، ومن أين ذلكم؟ من سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: «**مَتَىٰ السَّاعَةُ**».

* التدرج فِي التعليم، وما يُسَمَّىٰ اليوم بـ: «المَنهَجيَّة فِي التعليم»، فَإِنَّ المُربِّي الناجح الحَاذق البصير هو الذي يُعَلِّم الناس صغار المَسَائل قبل كبارها[٢].

* وُجُوب تعلم ما تضمنه هذا الحديث من أصول وهي أربع: مَرَاتب الدِّين

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمَان، باب: الإيمَان والإسلام والإحسان، برقم (١).

(٢) أخرج البخاري مُعَلقًا فِي كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعَمَل، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿ كُونُواْ رَبَّنِيِّـنَ ﴾ قَالَ: «حُلمَاء فُقهَاء. ويُقَال الرَّبَّانِي: الذي يُرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كباره».

الثلاث، وعَلامَات السَّاعة، وعلامات السَّاعَة يكفي منها ما تَيَسَّر، والمَقصُود استعداد العبد لِهَذه السَّاعَة الَّتِي هي القيامة، فإذا نظرت فِي رسالة مُحَمَّد ﷺ وجدت تفصيلًا لِهَذه المَرَاتب الثلاث، فإنه من حين بَعَثَه الله حتَّىٰ توفاه وهو يُعَلِّمُ الناس هذه المَرَاتب إجمَالًا وتفصيلًا.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الأصل الثالث: معرفة نبيكم مُحَمَّد ﷺ، وهو: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المُطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العَرَب، والعرب من ذرية إسمَاعيل بن إبراهيم الخَليل -عليه وعلىٰ نبيِّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام-.

الشــرح

* معرفة رَسُول الله ﷺ تتضمن شيئين:

أَحَدهُمَا: معرفة نسبه، وأنه خُلاصَة بل خُلاصَة الخُلاصَة، ويدل لِهَذا السياق الذي بين أيدينا فِي الكتاب ما رَوَاه مسلم فِي صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله اصطَفَىٰ كِنَانَة مِن وَلَدِ إِسمَاعِيلَ، وَاصطَفَىٰ قُرَيشًا مِن كِنَانَة، وَاصطَفَىٰ هَاشِمًا مِن قُرَيش، وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هَاشِمٍ**»[(١)]. هذه خُلاصَة نسبه ﷺ، وهي خُلاصَة الخُلاصَة.

وقد عرفنا من حكمة الله تعالى أنه يبعث رَسُولًا بلسان قومه، ويبعث من القوم أشرفهم نَسَبًا، وأنبلهم خُلقًا، وأزكاهم نفسًا، وهذه مُتَوَفرة فِي مُحَمَّد ﷺ، هذا أحد الشيئين.

وأمَّا الشيء الآخر: فَمَنزلَة معرفته ﷺ من دين الله، فَإنَّ نبوَّة مُحَمَّد ﷺ ثابتة بالنَّصِّ، وبإجمَاع المُسلمين.

٭٭٭

(١) أخرجه مسلم كتاب الفَضَائل، باب: فضل نسب النَّبِي ﷺ، برقم (٥٨٩٧).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وله من العمر: ثلاث وستون سَنَة، منها أربعون قبل النبوَّة، وثلاث وعشرون نبيًّا ورَسُولًا، نُبِّئ بـ: ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسل بـ: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾.

الشرح

قلت مَعنَىٰ: نُبِّئ بـ: ﴿اقْرَأْ﴾ أول الوحي علىٰ الصَّحيح نزول ﴿اقْرَأْ﴾ وقد نزل عليه أول ما نزل منها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

فكانت هذه توطئة وتَمهيد بداية الوحي؛ إذ جَاءَه المَلَكُ فَضَمَّه ثلاثًا؛ يغطه ويرسله، ويقول له: «اقرأ». فيقول: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». أي: لا أعرف شيئًا، ثُمَّ في الثالثة قال له الآيات، فَذَهَبَ ﷺ إِلَىٰ خَديجَة رضي الله عنها، وهي زوجه الأمينة الشريفة البرة، وأخبرها خَبَرَهُ ومَا وَجَدَه وهو يَرتَجف ﷺ خَائفًا؛ إذ فوجئ بِمَا لا يعرف وما لَم يَعهَد.

وكان قد حُبِّبَ إليه قبل ذلك الخَلاء، وكان يَذهَب إِلَىٰ غار حراء، ويَخلو الليالِي يَتَعبَّد، ويَتَحنَّث، ويَتَزَوَّد لذلك من زوجه خَديجَة رضي الله عنها بِمَا يَحتَاجه من الزاد، فطمأنته وسكنت روعه، ثُمَّ ذهبت به إِلَىٰ ابن عَمِّهَا وَرَقَة بن نوفل، وكان يكتب الإنجِيل بالعبرانيَّة، وقالت له: «يَا ابن عَمِّ، اسمَع مِن ابنِ أَخِيكَ». وهذه عادة العرب يقولون للكبير: يا عم. فأخذ خبر النَّبِي ﷺ، وقَالَ له: هذا كما كان يَنزل عَلَىٰ موسىٰ ...[1] الحَديث.

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي، رقم الحَديث (٣)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: بدء الوحي إِلَىٰ رسول الله ﷺ، برقم (٤٠١).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وبلده مكة، وهاجر إِلَىٰ المَدينة، بعثه الله بالنذارة عن الشِّرك، ويَدعُو إِلَىٰ التوحيد، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧].

الشرح

هَذَا بعدما أنزل عليه آيات من سورة «اقرأ»، وحدث له ما حدث؛ فتَرَ عنه الوحي زمنًا، ثُمَّ عَادَ بِهَذه الآيات، وبِهَا تَحمل ﷺ ما أعده له ربُّه وهيأه له، وذلكم هو الإنذار من الشِّرك والتخويف منه، والدعوة إِلَىٰ توحيد الله ﷻ .

فبدأ دعوته ﷺ سرًّا، يعلم ويُخبر ويدعو مَن يثق به من خَوَاصِّه ومعارفه من الأقارب وغيرهم، ويقول المُؤرخُون: إنه مضىٰ علىٰ ذلك ثلاث سنين حتَّىٰ نزل عليه قوله تعَالَىٰ: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فإذن المَرحَلة الأولَىٰ من مَرَاحل الدَّعوَة فِي الفترة المَكيَّة هي: السِّريَّة، الدَّعوَة سرًّا، وهذه ثلاث سنين.

والمَرحَلَة الثانية هي: الجَهر بالدَّعوَة والصَّدع ببيان الدِّين الذي أرسله الله به، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وخلع الأوثان، وهذه أمضىٰ فيها عشر سنين.

فتكون الفترة المَكيَّة ثلاث عشرة سَنَة، والفترة المَدَنيَّة عشر سنين، هذه المَرَاحل الَّتِي مَرَّت بِهَا دعوة مُحَمَّد ﷺ، فاشتركت الفترتان فِي الدَّعوَة إِلَىٰ التوحيد والتحذير من الشرك، واختصت المَدَنيَّة ببَيَان الشَّرائع العَمَليَّة كالزكاة والصِّيام والحَج، أمَّا الصَّلاة فقد فرضت فِي الفترة المَكيَّة.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ومَعنَىٰ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ينذر عن الشرك، ويَدعُو إِلَىٰ التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. أي: عظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. أي: طَهِّر أعمالك من الشرك.

الشرح

هَذَا هُوَ أحد القولين للمُفَسِّرين[1]، ولكن الصَّحيح: أي: طَهِّر ثيابك من النَّجَاسَات، يقول بعض المُفَسِّرين: إنَّ من عَادة العَرَب جَرَّ ثيابِهم، وهَذَا ما يعرضها إِلَىٰ النَّجَاسَات، فَأُمِرَ النَّبِي ﷺ بالمُحَافظة عَلَىٰ تطهير ثيابه، ومُقتَضَىٰ ذلك: أنه يُقَصِّر ثيابه؛ لأنَّ العَرَب ما كانوا يبالون بِهَذه الأمور.

❊❊❊

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها فِي «الجَامع لأحكام القرآن» للقرطبِي (١٩/ ٥٩).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. الرجز: الأصنام، وهجرها تركها، والبراءة منها وأهلها.

الشرح

هذه قاعدة عظيمة، فإنه لا يكفي إخلاص الدِّين لله، بل لابد أن يَجتمع معه البراءة من الشرك وأهل الشرك، والبراءة هي البغض والتنكر للشرك وأهله.



قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: أخذ عَلَىٰ هَذَا عشر سنين يَدعُو إِلَىٰ التوحيد، وبعد العشر عرج به إِلَىٰ السَّمَاء، وفُرضَت عليه الصَّلَوَات الخَمس، وصَلَّىٰ فِي مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر بالهِجرة إِلَىٰ المَدينَة.

الشــرح

المِعرَاج ثابتٌ بالسنَّة[1]، والإسراء ثابت بالكتاب[2] والسنَّة[3]، وكلاهُمَا بِجَسده ورُوحهﷺ، وفِي اليقظة لا فِي المَنَام، وما جَاءَ من النصوص مِمَّا يُوهم أنه بالمَنَام، فذلك غلط من بعض الرُّوَاة، وهذه خصيصة لهﷺ.

حتَّىٰ السَّاعَة لا نعلم أن نبيًّا من الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- عُرج به إِلَىٰ السَّماء كَمَا عُرج برسول الله ﷺ -أي: عُرج به العُرُوج الذي جَاوَزَ فيه سدرة المُنتَهىٰ-، نعم رفع الله جَمَاعَة من الأنبياء إليه منهم عيسىٰ، هذا مرفوع وهو حَيٌّ؛ وسينزل آخر الزَّمن، وسيحكم بشريعة مُحَمَّدﷺ، ويقتل المَسيح الدَّجَّال.

وموسىٰ، وقبله آدم، وإبراهيم، وكذلك هاورن بعد مُوسَىٰ، ويَحيَىٰ: هؤلاء رُفعوا إِلَىٰ السَّمَاء، لكن الظاهر أنه بعد مَوتِهم؛ لأنَّ النَّبِيﷺ لقيهم فِي السَّمَاء.

---

(١) حديث معراجهﷺ، أخرجه البخاري فِي كتاب الصَّلاة، باب: كيف فُرضَت الصَّلَوَات فِي الإسراء برقم (٣٤٩)، ومسلم كتاب الإيمَان، باب: الإسراء برسول اللهﷺ إِلَىٰ السَّمَوَات.

(٢) وذلك فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

(٣) ومن ذلك ما أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب: قوله تعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ برقم (٤٧١٠).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والهِجرَة: الانتقال من بلد الشِّرك إلَىٰ بلد الإسلام، والهِجرَة فريضة عَلَىٰ هذه الأمَّة من بلد الشِّرك إلَىٰ بلد الإسلام.

الشرح

الهِجرَة لغة: الترك، وهي فِي العرف: الانتقال من بلد إلَىٰ بلد.

وأمَّا فِي اصطلاح الشَّرع: فَكَمَا قال الشيخ، وهي فريضة مُحكمَة لَم تنسخ، وتَجب عَلَىٰ المُسلم إذا كان فِي بلد من بلاد الكفار لا يأمن فيه عَلَىٰ دينه وعرضه، أمَّا إذا كَانَ يأمن عَلَىٰ دينه وعرضه؛ فهي ليست وَاجبَة عليه، ولكنها سنَّة، الأَولَىٰ أن يُهَاجرَ المُسلم من بلاد الكُفَّار إلَىٰ بلاد الإسلام، والأدلة علىٰ أحكام الهِجرَة صحيحة من السنَّة، وصَريحَة من الكتاب الكَريم.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهي باقية إلَىٰ أن تَقُومَ السَّاعَة، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

الشرح

هذه الآية صَريحَة فِي بقَاء الهِجرَة.

ووجه الدلالة: فِي توبيخ المَلائكة للذين رضوا بالإهانة والضيم فِي دينهم، ولَم يُهَاجروا مع القُدرَة عليها؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الآية. إذا كَانَ الإنسان يُفتَن فِي دينه وعرضه من الكفَّار، ولا يقدر عَلَىٰ الهِجرَة؛ فَهَذَا لا إثمَ عَلَيه، أما إذا بقي واستسلم فِي دينه وعرضه مَعَ قدرته عَلَىٰ ذلك؛ فإنه عُرضَة لِهَذَا الوعيد كَمَا هو صريح من لفظ الآية الأولىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله تعَالَىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

الشـــرح

يَعنِي: إذا لَم تُمكنهم عبادة الله عَجَّلَ فِي بلد الكُفر؛ فَإِنَّ عليهم أن يُهَاجرُوا إِلَىٰ بلد مسلم أو غير مسلم، ولكن تُمكنهم عبادة الله فيه علىٰ الوجه الصَّحيح.

ﮕ ❁ ❁ ❁ ﮔ

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ البغوي -رَحِمَه الله تعَالَىٰ-: سَبَبُ نزول هذه الآية فِي المُسلمين الذين بِمَكَّة لَم يُهَاجرُوا؛ ناداهم الله باسم الإيمَان.

الشــرح

والعبرة كَمَا قَرَّرَهُ الأصوليون بعُمُوم اللفظ، لا بِخُصُوص السَّبب، فَإِذَا وَرَدَ لفظ عام فِي قضية خَاصَّة؛ فإنه يبقىٰ عَلَىٰ عُمُومه مَعَ دُخُول تلك القَضيَّة الَّتِي هي سبب نزول الآية فِي العُمُوم دُخُولًا أوليًّا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والدليل عَلَىٰ الهِجرَة من السنَّة قوله ﷺ: «لاَ تَنقَطِعُ الهِجرَةُ حَتَّىٰ تَنقَطِعَ التَّوبَةُ، وَلاَ تَنقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا».

الشرح

دَلَّ هَذَا الحَدِيث عَلَىٰ أمرين هُمَا:

أولًا: أنَّ الهِجرَة مُحكمَة، وأنَّ انقطاعها يَكُون بانقطاع التَّوبَة.

وثانيًا: دَلَّ عَلَىٰ أنَّ للتَّوبَة حَدًّا، هَذَا هو الأجل العام، وهُوَ طلوع الشَّمس من مَغرِبِهَا.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَلَمَّا استقر بالمَدينَة أُمر ببقية شرائع الإسلام مثل: الزكاة، والصَّوم، والحَج، والأذان، والجِهَاد، والأمر بالمَعرُوف والنهي عن المُنكَر، وغير ذلك من شَرَائع الإسلام، أخذ عَلَىٰ هَذَا عشر سنين، وتوفِّيَ -صلاة الله وسلامه عليه- ودينه باقٍ.

الشـــرح

لأن رسالته خَاتِمَة وعَامَّة للثقلين -الجِن والإنس- إلَىٰ يوم القيامة، لا نبِي بعدهﷺ، كَمَا هو ثابت بالكتاب، والسنَّة، وبإجمَاع المُسلمين.

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا دينه، لا خير إلَّا دَلَّ الأمة عليه، ولا شر إلَّا حَذَّرَهَا منه، والخَير الذي دَلَّ عليه: التوحيد، وجَميع ما يُحبه الله ويرضاه. والشَّر الذي حَذَّرَ منه: الشرك، وجَميع ما يكرهه الله ويأباه.

الشرح

ويدل لِهَذَا من السنَّة قوله ﷺ: «إِنَّهُ لَم يَكُن نَبِيٌّ قَبلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا أَن يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَىٰ خَيرِ مَا يَعلَمُهُ لَهَا، وَيُنذِرَهُم شَرَّ مَا يَعلَمُهُ لَهَا»[1].

وقوله ﷺ: «عَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِن بَعدِي ...»[2].

إلَىٰ غير ذلك من مُتَواتر السنَّة مع الآيات الكثيرة من الكتاب الكَريم.

❊❊❊

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة، باب: وُجُوب الوفاء ببيعة الخُلَفَاء الأول فالأول، رقم (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٢/ ٦١٠) برقم (٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٤) برقم (٢٦٧٦)، وصَحَّحَه الألباني فِي السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: بَعَثَهُ الله إِلَىٰ النَّاس كافة.

الشرح

دليل عُمُوم رسالته من القرآن: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عامة، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨].

ومن السنَّة قولهﷺ: «أُعطِيتُ خَمسًا لَم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ مِن قَبلِي ...». الحَديث، وفيه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومِهِ خَاصَّة، وَبُعِثتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التيمم، برقم (٣٣٥)، ومسلم كتاب المَسَاجد ومواضع الصَّلاة، باب: جُعلت لِي الأرض مَسجدًا وطَهُورًا، برقم (١١٦٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وافترض طاعته عَلَىٰ جَميع الثقلين: الجِن والإنس، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

الشـــرح

هذه فيها عُمُوم رسالته ووُجُوب طاعته، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقال ﷺ: «أُعطِيتُ خَمسًا لَم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ قَبلِي ...». وذكر منها: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومِهِ خَاصَّة، وَبُعِثتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّة»[1].

لكن قد يقول قائل: ما وجه دخول الجِنِّ فِي هذه الآية؟

هَذَا مَا يَحتاج إِلَىٰ بَيَان، وذلك أَنَّ الجِنَّ من النَّاس بدلالة اللغة والشَّرع:

فمن جهة اللغة: لفظ: «الناس» من النوس، وهو كثرة الحَرَكَة.

ومن جهة الشرع: حديث ابن مَسعُود: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الإِنسِ يَعبُدُونَ نَاسًا مِنَ الجِنِّ» الحَديث[2].

❀❀❀

(١) سبق تخريجه.

(٢) سَبَقَ تَخريجُه.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وأكمل الله به الدِّين، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

الشــرح

نزلت هذه الآية سَنَة عشر من الهِجرَة يوم عَرَفَة، وكان يوم جُمُعَة، نزلت عليه ﷺ بعَرَفَه، وهذه الآية هي آخر ما نزل من بَيَان الشَّرع، وهناك رواية أخرىٰ أن آخر ما نزل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

فَجَمَعَ أهل العلم فَقَالوا: من حيث بَيَان الدِّين آخر ما نزل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. ومن حيث التذكير باليوم الآخر: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: والدليل عَلَىٰ موته ﷺ قوله تعالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

الشرح

هَذَا خطاب له ﷺ يَتَضَمَّن أنه سَيَمُوت؛ لأنَّ مَعنَىٰ مَيِّت: سَيَمُوت، بِخِلاف مَيت، أي: قد مَاتَ، هَذَا هو الأشهر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فَهُوَ ﷺ تَجري عليه الأعراض البَشَرِيَّة من المَرَض والمَوت والنسيان، إلَّا الشَّرع فإنه لا يَنسَىٰ منه شيئًا حتَّىٰ يُبيِّنه للناس، فَمَا نسي ﷺ بلاغ ما أُمر به أبدًا.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وفِي هَذَا رَدٌّ عَلَىٰ مَن يَدَّعي حياته ﷺ كحياة سائر الناس، ومَا جاء من النصوص كقوله ﷺ: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاتَكُم تبلُغني**»[1]. فَهَذَا مَحمُول عَلَىٰ الحَيَاة البرزخيَّة -والله أعلم- بكيفيتها.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أبو داود كتاب المَنَاسك، باب: زيارة القبور، برقم (٢٠٤٢)، وصَحَّحَه الألبانِي فِي صحيح الجَامع برقم (٧٢٢٦).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: والناس إذا ماتوا يُبعَثون، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

وقَالَ تعالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨].

الشـــرح

* يَمُر بالإنسان ثلاثة أطوار كَمَا فِي هاتين الآيتين:

الأول: طور الخَلق من تراب.

والثانِي: الإعادة إلَىٰ مَنشَئه وهو المَوت.

والثالث: الإخراج، وهو البعث من القبور للجَزاء والحِسَاب، حين يُؤمَر المَلَك بالنفخ فِي الصُّور، فيقوم الناس من قبورهم مذهولين، كَأَنَّهم فراش مَبثُوث، فَبَانَ بِهَذَا أن مَن لَم يؤمن بالبعث فإنه كافر، قال تعالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللهُ: وبعد البعث مُحَاسَبون ومَجزيون بأعمالِهم.

الشرح

* وأدلة البعث تَضَمَّنت ثلاثة أشياء:

أولًا: كَمَال قُدرَة الله، كَمَا فِي قوله تعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ إِلَىٰ قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:٦-١٦].

ثانيًا: كَمَال علمه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٧-٧٩]. هَذَا كَمَال العلم مع كَمَال القُدرَة أيضًا.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومن المَعلوم أنَّ الإعادة أسهل من الابتداء، مع أنَّهَا كلها عَلَىٰ الله هَيِّنة، لكن فيما بين الخَلق إعادة الشيء إِلَىٰ سابق عهده أسهل أما الإنشاء فهو أصعب.

ثالثًا: كَمَال عدله وحكمته، وكيف ذلك؟ ليلقىٰ كل عامل جزاءه فِي الآخرة، بعض الناس لا يُجزىٰ علىٰ عَمَله فِي الدُّنيَا، أو قد يُجزىٰ ولكن لا يُجزىٰ جَزَاء كَاملًا، ومن ذلك قوله تعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

❀❀❀

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

الشـــرح

فالأمر لا ينتهي بالبعث، بل هناك مُحَاسبة علىٰ الأعمال، والحُسنَىٰ هنا الجَنَّة، وأعظم نعيم الجَنَّة رؤية المُؤمنين ربَّهُم عيانًا.

فقد أخرج أحمد ومسلم[1]، من حديث صهيب بن سنان ﷺ، أنَّ النَّبي ﷺ قَالَ: «**إذَا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نُودُوا: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، إنَّ لَكُم مَوعِدًا عِندَ الله لَم تَرَوهُ.** فَقَالُوا: وَمَا هُوَ؟ أَلَم تُبَيِّض وُجُوهَنَا، وَتُزَحزِحنَا عَنِ النَّارِ، وَتُدخِلنَا الجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيَكشِفُ الحِجَابَ، فَيَنظُرُونَ إِلَيهِ، فَوَاللهِ مَا أَعطَاهُمُ الله شَيئًا أَحَبَّ إِلَيهِم مِنهُ، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

❀❀❀

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمَان، باب: إثبات رُؤية المُؤمنين فِي الآخرة ربَّهُم ﷻ، برقم (٤٤٨)، وأحمَد (ج٣١/ برقم ١٨٩٣٥) من حديث صهيب ﷺ واللفظ له.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالىٰ:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧].

الشـــرح

الشاهد منها: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ ومِمَّا أنكره القوم: البعث، والبعث من أصول الاعتقاد الستة.

واعلم أيها المسلم -هديت إلىٰ مراشد أمورك- أن مذاهب الناس في البعث ثلاثة:

أحدهما: مذهب المنكرة من الكفار والمشركين، وهؤلاء ينكرون البعث جملة وتفصيلًا، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومما جاء توبيخًا لهم وتسجيلًا للكفر عليهم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة:٤١-٥٠].

ثانيهما: من يؤمن بالبعث في الجملة، وينكرون بعض ما فيه مثل: الحوض، والصراط، وهؤلاء هم المبتدعة من أهل الإسلام، كالمعتزلة ومن تبعهم، وصريح القرآن ومتواتر السنة وإجماع أهل الحق رد عليهم.

ثالثهما: من يؤمن بالبعث وما فيه جملة وتفصيلًا وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة.

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وأرسل الله جَميع الرُّسُل مُبَشِّرين ومُنذرين، والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء:١٦٥].

الشـــرح

يُبَشِّرُونَ أهل التوحيد والطاعة بالجَنَّة، ويُنذرون أهل الشرك والمعصية بالنار.

* * * * *

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأولُهم نوح عليه السلام، وآخرهم مُحَمَّد ﷺ، والدليل علَىٰ أنَّ أولَهُم نوح عليه السلام قوله تعالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣].

الشرح

تأمل وجه الدلالة قَالَ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ إذن أيهما قبل الآخر: نوح ﷺ أم مُحَمَّد ﷺ؟

نوح لأنه قَالَ: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ وبين نوح ﷺ ومُحَمَّد ﷺ سائر النبيين: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد نوح، فَهُوَ ذكر آخر الرُّسُل، وأخبر أنه أوحي إليه كَمَا أوحي إلَىٰ أولِهم وهو نوح، ثُمَّ عَطَفَ ما بينهما، وهم بقية النبيين والمُرسَلين -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وكل أمَّةٍ بعث الله إليها رَسُولًا من نوح إلىٰ مُحَمَّد؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهُم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

الشرح

* هذه الآية دليل علىٰ ثلاثة أمور:

أولًا: عَلَىٰ أن كل أمَّة بلغتها الرِّسَالة، وهذا العُمُوم مُستَفَاد من قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فَإنَّ «كل» من صيغ العُمُوم.

ثانيًا: أنَّ الله لا يقبل عبادة مَعَ الشِّرك.

وثالثًا: عَلَىٰ أنَّ دين الأنبياء واحد وهو الإسلام، عن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ إن الله -تبارك وتعالىٰ- أمرني أن أقرأ عليك فقرأ علي: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١-٤]. إن عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولاالنصرانية، ومن يفعل خيرًا فلن يكفره[١].

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله إن اليهودية لبدعة، وإن النصرانية لبدعة، وإن الحرورية لبدعة، وإن السبيئة لبدعة، ما نزل بهن كتاب ولا سنهن نبي»[٢].

---

(١) مسند أحمد (٣/ ١٣٠)، برقم (٢١٢٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٣/ ١٧٨).

قال مقيده: فبان بهذه الأخبار -وما في معناه وهو كثير- أن اليهودية والنصرانية ليست ديانات سماوية، فلا تغتر بقول يخالف هذه الأخبار.

❊❊❊

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وافترض الله عَلَىٰ جَميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمَان بالله.

قال ابن القيم -رَحِمَه الله تعَالَىٰ-: مَعنَىٰ الطاغوت: مَا تَجَاوز به العبد حَدَّه من مَعبُود، أو مَتبوع، أو مُطَاع، والطواغيت كثيرون، ورءوسهم خَمسَة إبليس -لعنه الله-، ومن عُبِدَ وهو رَاضٍ، ومَن دَعَا الناس إلَىٰ عبادة نفسه، ومن ادَّعَىٰ شيئًا من علم الغيب، ومن حَكَمَ بغير ما أنزل الله.

والدليل قوله تعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وهَذَا مَعنَىٰ لا إله إلَّا الله.

الشـــرح

قوله: افترض الله علىٰ جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

المراد بالعباد: المكلفون من الجن والإنس، وقد أشار رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ما تضمنته آية البقرة التي سيأتي ذكرها.

قوله: «والطواغيت كثيرون» تنبيه إلىٰ أن عددهم غير محصور، يوضحه ما أسلفته من تفسير ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ للطاغوت.

قوله: «رؤوسهم خمسة» يعني الروءساء والزعماء الذين هم أساس لكل طغيان في الأرض، وانحرف بأهلها عن ما رضيه الله لهم من دين الحق.

الأول: إبليس لعنه الله، هذا الاسم سماه الله به حين عصىٰ وأبىٰ عن السجود لآدم استكبارًا وعنادًا، وكان إبليس عليه لعنة الله مع الملائكة مصاحب لهم،

ويقال: إنه من الجن الذين أفسدوا في الأرض قبل خلق آدم فطهرها الله منه، وكان إبليس إذ ذاك رجلًا صالحًا، فجعله الله مع الملائكة حتىٰ كان منه ما كان.

وقصة أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، واستجابتهم أمر الله، وعصيان عدو الله إبليس، جاءت في مواضع من الكتاب الكريم منها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص:٧٠-٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

قال مقيده: ويتبين لكل ذي لب وبصيرة من هذه الآيات العظيمات وما في معناها من آي التنزيل الكريم أحكام وفوائد منها:

أولًا: فضل الملائكة الكرام؛ فقد استجابوا لأمر ربهم، ولم يتلكئوا مع علو مكانهم ومكانتهم وشرف مادة خلقهم[(١)].

ثانيًا: كفر إبليس وحلول اللعنة عليه إلىٰ يوم القيامة؛ فلا تغتر بقول من قال: إنه لم يكفر؛ فإنه ضال مضل.

من عبد وهو راض، يعني من رؤوس الطواغيت من رضي بعبادة الخلق له،

(١) ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ «خلقت الملائكة من نور...» الحديث.

وسواء كان ذلك في حياته مثل من تقبل الأرض بين يديه ويسجد له أو ينحنا له وهو يؤيد ذلك ويغضب علىٰ من لم يفعله، أو كان بعد مماته مثل من يوصي ببناء مسجد ويجعل فيه قبة ويوصي بدفنه فيه.

ومن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، والمعنىٰ أن من رءوس الطواغيت وزعمائهم من كان داعية إلىٰ عبادة نفسه، وذلك أنه يأمر أتباعه ومن له النفوذ فيهم بأن يجعلوا له حظًّا من حق الله تعالىٰ الذي لا شركة لأحد فيه، مثل: من يحل الحرام ويحرم الحلال ويفرض طاعته عليهم في ذلك، وقد سمىٰ الله هؤلاء أربابًا، قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا -حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله- يكونون علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم علىٰ التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله إتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا -وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم- فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله؛ مشركًا مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها

معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب»[(١)]. اهـ محل الغرض.

قلت: ومصداق هذا ما أخرجه ابن جرير وغيره، عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك**، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]. قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، فقال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟** قال: قلت: بلىٰ، قال: **فتلك عبادتهم**»[(٢)].

قوله: «ومن ادعىٰ شيئًا من علم الغيب» قلت: هذا هو رابع الرءوس في الطواغيت، قال الشيخ الفقيه المجتهد محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغيب ما غاب عن الناس وهو نوعان: واقع، ومستقبل، فغيب الواقع نسبي ويكون لشخص معلومًا ولآخر مجهولًا، وغيب المستقبل حقيقي لا يكون معلومًا لأحد إلا الله وحده، أو من أطلعه عليه من الرسل، فمن ادعىٰ علمه فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ﷻ ولرسوله»[(٣)]. اهـ

قال مقيده: وهذا الأخير هو الذي عناه المصنف وعد صاحبه في رءوس الطواغيت، وحتىٰ تعلم أن هذا الصنف كفرة فجرة نسوق إليك جملة من آي التنزيل قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب التفسير، باب سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥)، وابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢١٠) رقم الحديث (١٦٦٣٢) واللفظ له.

(٣) شرح الأصول الثلاثة، لمحمد بن صالح العثيمين.

يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل:٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

قال مقيده: ويظهر لك جليًّا من سياق الآيات الأربع أمران:

أولهما: نفي علم الغيب في المستقبل عن الخلق كلهم، وهذا يفيد اختصاصه بالله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وثانيهما: صريح آية الجن في اطلاع الله سبحانه من شاء من رسله علىٰ شيء من هذا العلم.

قال ابن كثير: «قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ هذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهكذا قال هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه علىٰ شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالىٰ عليه، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن:٢٦-٢٧]. وهذا يعم الرسول الملكي والبشري.

ثم قال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن:٢٧]، أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه علىٰ ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ

عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨][1]. اهـ محل الغرض.

واعلم -هديت الرشد من أمرك- أنه لا يلج هذا الباب إلا الكهان والعرافون ضحكًا منهم علىٰ السذج والمغفلين والهمج الرعاع من الناس، وقد جاءت السنة المتواترة متضمنة أبلغ الزجر عن الركون إلىٰ هؤلاء والتعلق بهم، وهناك ثلاثة أحاديث منها:

١- عن صفية عن بعض أزواج النبيﷺ، عن النبيﷺ قال: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[2].

٢- عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول اللهﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول أو أتىٰ امرأة في دبرها فقد برئ مما أنزل علىٰ محمد**»[3].

٣- عن عمران بن حصين ﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: «**ليس منا من تَطَيَّر أو تُطِيِّر له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له**» الحديث[4].

ومن حكم بغير ما أنزل الله، هذا هو خامس رءوس الطواغيت، وتعرف المسألة بالحاكمية، وقد انقسم المتكلمون فيها إلىٰ طائفتين:

إحداهما: أهل الشطط والهوىٰ وهم الذين اتخذوا المسألة سُلَّمًا يعبرون خلاله إلىٰ تكفير حكام المسلمين، ومن يواليهم جزافًا غير عابئين بالأصول

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٥٩٥٧).

(٣) سنن أبي داود، كتاب الطب، باب في الكاهن، برقم (٣٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٤٢).

(٤) صححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٦٥٠).

والضوابط المعتبرة والقواعد المقررة في الأسماء والأحكام، فتبعهم فئات من الناس جماعات وأفرادًا، فقالوا علىٰ الله وعلىٰ رسولهﷺ بغير علم فضلوا وأضلوا.

والثانية: هم أهل السنة وهم الذين انبروا لدحض حجج المنحرفين ورد شبه المبطلين وبيان وجه الصواب في المسألة بالحجج والبراهين، مفصلين القول في هذا الأمر تفصيلًا يعيه ويدركه من شرح الله للحق صدره، وكان له قلب، وألقىٰ السمع وهو شهيد.

وهاك -أيها الناصح لنفسه، الحازم في أمره- جملة في أقوال أئمة العلم والدين كي تعرف الحق بدليله، وتتضح لك الحجة، وتستقيم علىٰ المحجة -إن شاء الله تعالىٰ-:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما أمر التكفير فالصواب أن من اجتهد من أمة محمدﷺ وقصد الحق فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه، ومن تبين له ما جاء به الرسولﷺ فشاق الرسولﷺ من بعد ما تبين له الهدىٰ واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر، ومن اتبع هواه وقصر في طلب الحق بلا علم فهو عاص مذنب، ثم قد يكون فاسقًا، وقد يكون له حسنات وترجح علىٰ سيئاته»[(١)].

وقال: «هذا مع أني دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلىٰ تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا علم أنه قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرىٰ، وعاصيًا أخرىٰ»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٩٩).

وقال تلميذه شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهاهنا أصل وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد.

فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول ﷺ جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا، منه أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل: فينقسم إلىٰ ما يضاد الإيمان، وإلىٰ ما لا يضاده، فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة، فهو الكفر العملي قطعًا، ولا يمكن أن ينفي عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله ﷺ عليه، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر، بنص رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، ومن الممتنع أن يسمي الله تَعَالَىٰ الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، ويسمي رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافرًا، ولا يطلق عليهما اسم الكفر.

وقد نفىٰ رسول الله ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر، وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وإذا نفىٰ عنه اسم الإيمان، فهو كافر من جهة العمل، وانتفىٰ عنه كفر الجحود والاعتقاد، وكذلك قوله: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، فهذا كفر عمل، وكذلك قوله: «**من أتىٰ كاهنًا فصدقه أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**»، وقوله: «**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**».

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا التفصيل قول الصحابة الذين هم ألم الأمة بكتاب الله، وبالإسلام والكفر ولوازمهما، فلا تتلقىٰ هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين

لم يفهموا مرادهم»[1]. اهـ

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله تعالىٰ-: «الحاكم بغير ما أنزل الله كافر: إما اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:

أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو ما روي عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي.

الثاني: ألا يجد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله ﷺ حقًّا، لكن اعتقد أن حكم غير رسول الله ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقًا، أو بالنسبة إلىٰ ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، وهذا أيضًا لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان، وصرف نحاتة الأفكار، علىٰ حكم الحكيم الحميد.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ﷺ، لكن اعتقده مثله، فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافرًا الكفر الناقل عن الملة، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة لقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلًا لحكم الله ورسوله ﷺ فضلًا عن أن يعتقد كونه أحسن منه لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ﷺ، فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه،

---

(١) كتاب الصلاة (٥٥/ ٥٦).

لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القطعية تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ورسوله ﷺ، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادًا وإمدادًا وإرصادًا وتأصيلًا وتفريعًا وتشكيلًا وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ومراجع مستمدات، فكما إن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمدات مرجعها كلها إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذا المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتىٰ.

السادس: ما يحكم به كثير من رءوساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعادتهم التي يسمونها (سلومهم)، يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحملون علىٰ التحاكم إليه عن النزاع، بقاء علىٰ أحكام الجاهلية، وإعراضًا عن حكم الله ورسوله ﷺ فلا حول ولا قوة إلا بالله»[(١)].

قال مقيده: والذي أدين الله به في هاتين المسألتين الأخيرتين هو تفصيل القول فيهما وهو ما عليه الجماهير من أئمة الدين من المسلمين من التفصيل فيما سبقهما، وإنما نقلت كلام الشيخ تامًا بمقتضىٰ الأمانة العلمية.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذه الآية: «﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

وما بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

وما قبلها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

واعلم: أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق كل واحد

---

(١) فتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم (١٢/ ٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠).

منها ربما أطلق في الشرع مرادًا به المعصية تارة، والكفر المخرج عن الملة أخرىٰ، ومن لم يحكم بما أنزل الله، معارضة للرسل وأبطالًا لأحكام الله، فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقدًا أنه مرتكب حرامًا فاعلًا قبيحًا، فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل علىٰ أن الأولىٰ في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارىٰ، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكل هو ما رأيت، والعلم عند الله تعالىٰ»[1].

وقال **الشيخ عبد العزيز بن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، وأنه خالف الشرع، ولكن استباح هذا الأمر ورأىٰ أنه لا حرج عليه في ذلك، وأنه يجوز له أن يحكم بغير شريعة الله فهو كافر كفرًا أكبر عند جميع العلماء، كالحكم بالقوانين الوضعية التي وضعها الرجال من النصارىٰ أو اليهود أو غيرهم ممن زعم أنه يجوز الحكم بها، أو زعم أنها أفضل من حكم الله، أو زعم أنها تساوي حكم الله، وأن الإنسان مخير إن شاء حكم بالقرآن والسنة وإن شاء حكم بالقوانين الوضعية، ومن اعتقد هذا كفر بإجماع العلماء كما تقدم.

أما من حكم بغير ما أنزل الله لحظ عاجل، وهو يعلم أنه عاص لله ولرسوله ﷺ، وأنه فعل منكرًا عظيمًا، وأن الواجب عليه الحكم بشرع الله، فإنه لا يكفر بذلك الكفر الأكبر، لكنه قد أتىٰ منكرًا عظيمًا ومعصية كبيرة، وكفرًا أصغر، كما

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٩٠)

قال ذلك ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أهل العلم، وقد ارتكب بذلك كفرًا دون كفر، وظلمًا دون ظلم، وفسقًا دون فسق، وليس هو الكفر الأكبر.

وهذا قول أهل السنة والجماعة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]»[١].

❀❀❀

(١) مجموع فتاوىٰ الشيخ عبد العزيز بن باز (٥/ ٣٥٥).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

الشـــرح

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكرهوا أحدًا علىٰ الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلىٰ أن يكره أحد علىٰ الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه علىٰ بينة، ومن أعمىٰ الله قلبه وختم علىٰ سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا.

وذكر روايات في سبب نزولها، منها: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصيني، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلًا مسلمًا، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

ثم قال: وقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: فقد ثبت في أمره واستقام علىٰ الطريقة المثلىٰ والصراط المستقيم.

وشبه ذلك بالعروة الوثقىٰ التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة

قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: الإيمان.

وقال السدي: هو الإسلام.

وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله.

وعن أنس بن مالك: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ القرآن.

وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها»[١]. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه معنىٰ لا إله إلا الله، قلت: يوضح المراد منه تفسير ابن كثير للآية».

٭٭٭

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٨-٣١٩).

قَالَ المُصَنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفِي الحَديث: «رَأسُ الأَمرِ: الإِسلاَمُ، وَعُمُودُهُ: الصَّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله».

والله أعلم، وصَلَّىٰ الله عَلَىٰ مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم.

الشـــرح

فِي الحَديث: «**رَأسُ الأَمرِ**». أي: الأمر الذي يصلح به حال الإنسان فِي دنياه وأخراه.

وَعَمُودُ الإسلاَمَ: الصَّلاة، فهي ثانِي الأركان بعد الشَّهَادتين.

وذروة سَنَام الإسلام: الجِهَاد، والمَقصُود هنا: جهاد الطلب.

❀ ❀ ❀



الخاتمة

هَذَا مَا يَسَّرَ الله جَمعَه وتَحريره فِي شرحنا عَلَىٰ الكتاب النفيس المَاتع المُبَارك: «**الثلاثة الأصول**» للإمام المُجَدِّد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد وسَمَنا هَذَا الشرح المُختَصر بـ:

« إتحاف العقول بشرح الثلاثة الأصول »

نقدمه للقراء من المسلمين في طبعته الثانية، والله أسأل أن يَجعَل عَمَلي فيه خَالصًا لوجهه الكَريم، وأن ينفع به كاتبه، وقارئه، وسامعه، وجَميع المُسلمين.

والحَمدُ لله الذي بنعمته تتم الصَّالِحَات، وصَلَّىٰ الله وسلم عَلَىٰ نبينا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آله وصحبه وسلم.

تَمَّ الفراغ منه ليلة الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة.

وكتبه

عبيد بن عبد الله بن سليمان الجابري

المدرس بالجامعة الإسلامية سابقًا

فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة التوبة

سورة يونس

سورة يوسف

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة طه

سورة المؤمنون

سورة الفرقان

سورة النمل

سورة العنكبوت

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يس

سورة ص

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة محمد

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة المجادلة

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة الملك

سورة القلم

سورة الجن

سورة المزمل

سورة الإنسان

سورة النبأ

سورة العلق

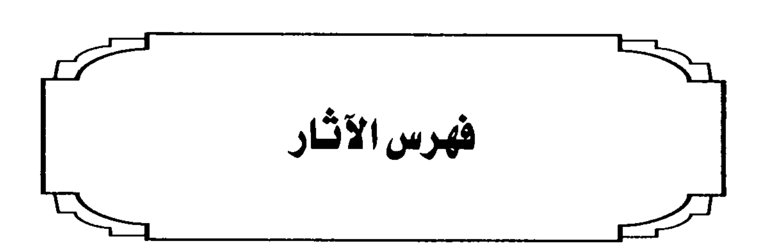
سورة البينة

سورة العصر

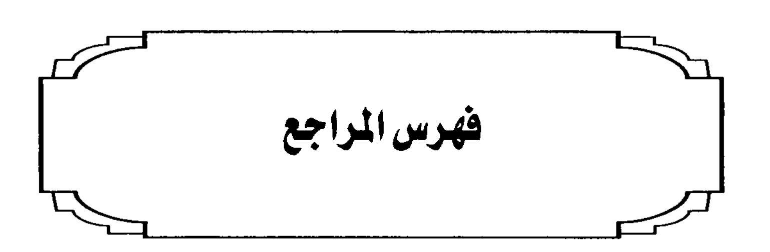
❀ ❀ ❀

فهرس الأحاديث

❀❀❀



فهرس الآثار



فهرس المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، ١٣٨٦ هـ.
٣- إغاثة اللهفان، للعلامة ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٥هـ
٤- الأم: تأليف: محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ، الطبعة الثانية.
٥- بدائع الفوائد، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولىٰ، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد.
٦- تفسير البغوي، تأليف: البغوي، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.
٧- تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار النشر: دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.
٨- تقريب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: محمد عوامة.
٩- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، تأليف: محمد إسماعيل الأمير

الحسني الصنعاني، دار النشر: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٠- تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للعلامة ابن سعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

١١- الجامع الصحيح للترمذي، تأليف: محمد بن عيسىٰ أبو عيسىٰ الترمذي السلمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين.

١٢- الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب، القاهرة.

١٣- السلسلة الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف.

١٤- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

١٥- سنن النسائي، تأليف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤٠٦-١٩٨٦، الطبعة الثانية. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

١٦- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٣هـ الطبعة التاسعة. تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره.

١٧- شرح الأصول الثلاثة، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.

١٨- صحيح البخاري، دار اليمامة ودار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ١٤٠٧هـ، الطبعة الثالثة.

١٩- صحيح الجامع، للألباني، مكتبة المعارف.

٢٠- صحيح مسلم مع النووي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الطبعة الثامنة، ١٤٢٢هـ.

٢١- ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

٢٢- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد ابن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر، بيروت.

٢٣- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، طبعة الإفتاء، تعليقات الشيخ: عبد العزيز ابن باز.

٢٤- فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، جمع: محمد بن عبد الرحمن ابن قاسم، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٩هـ.

٢٥- الفَرق بين الفِرق للبغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٢٦- الفصل في الملل لابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٧- كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عَجَلَّ، تأليف: ابن منده، تحقيق الدكتور: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، طبعة الجامعة الإسلامية.

٢٨- مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وولده، إشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين، بنفقة الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ.

٢٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة، مصر.

٣٠- ميزان الاعتدال، تأليف: أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد

البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

٣١- سنن الدارمي، تأليف: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الريان، ١٤٠٧هـ.

٣٢- كتاب الصلاة، لابن القيم، المكتب الإسلامي، تحقيق: تيسير زعيتر.

٣٣- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: العلامة الألباني، دار المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٣٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.

٣٥- صحيح سنن ابن ماجه، للشيخ الألباني، دار المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ.

٣٦- المعجم الأوسط للطبراني، دار الحرمين القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني.

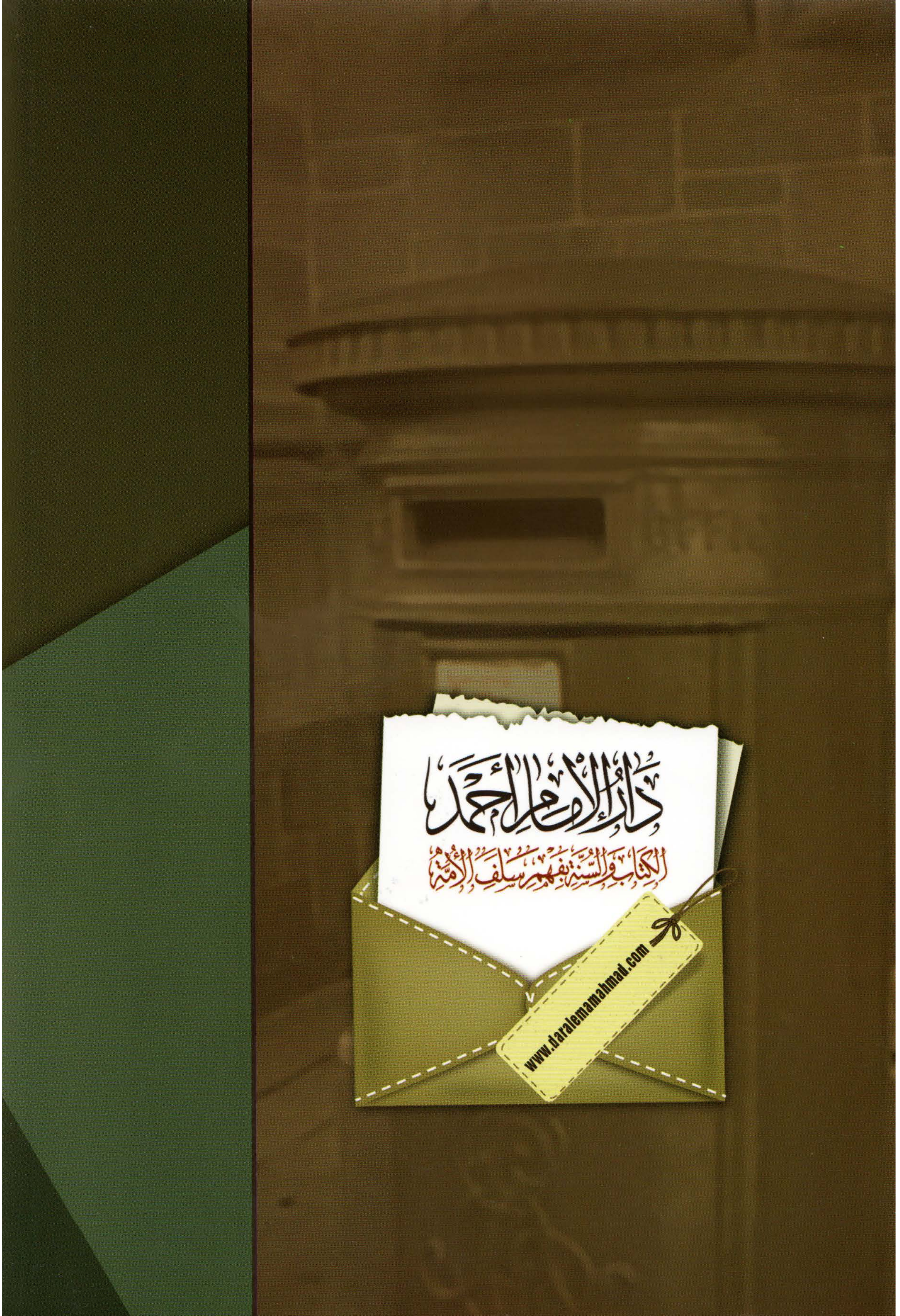
٣٧- مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة، للعلامة ابن باز، دار المؤيد، ١٤٢١هـ.

٣٨- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت الطبعة الأولىٰ.

٣٩- الواجبات المتحتمات، لمحمد بن عبد الوهاب، جمع: عبد الله بن إبراهيم القرعاوي.

فهرس الموضوعات

❊❊❊


دار الإمام أحمد
الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة
www.daralemamahmad.com